بحوث في التاريخ الإسلامي
(٣)

دواعي الفتوحات الإسلامية
ودعاوى المستشرقين

تأليف
الدكتور جميل عبد الله محمد المصري
أستاذ مشارك بجامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية الشريعة (قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية)

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

الحمد لله على نعمه التي لا تُحصى، وعلى عطائه الذي لا يُسْتَقصى، الحمد له سبحانه الهادي إلى كلّ ما فيه خير، والذي اختار أمة الإسلام وفضَّلها على سائر الأمم، وجعلها خير أمة أُخرجت للناس، بمواصفات وضعها سبحانه في قوله: ﴿كنتم خير أُمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾[1].

وصلى الله على نبيه المصطفى، الذي أوتي من الكَلم جوامعه، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان.. وبعد:

فالتاريخ الإسلامي أحد أهم عوامل بناء الأمة المسلمة، ووحدتها، ودراسته تعمِّق صلة الفرد المسلم بأُمته، وتزوِّده بكثير من المُثُل العليا الإسلامية، وتنبِّهه إلى الأخطار التي تواجه الأمة المسلمة في مسيرتها.

وقد عرف أعداء الإسلام أثر هذا العامل في وحدة الأمة منذ وقت مبكر، فعملوا جهدهم على إبعاده وفصله عن الدعوة الإسلامية، فتعرَّض تاريخ الإسلام منذ البداية إلى كيد الكائدين ودسّ الدسّاسين حين جنَّد أهل الكتاب (النصارى واليهود) والمجوس أنفسهم لذلك، وقامت السبئية بزعامة عبد الله بن سبأ اليهودي الصنعاني[2]، بالعمل على تفريق المسلمين

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) انظر تفاصيل المؤامرة في كتاب: «أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري» للمؤلف، ص ٢٤٧ ـ ٢٩١.

وإضعافهم، ثم نشطت الفرق المنحرفة والضالّة في تزوير النصوص، وفي إلصاق التُّهم بالصحابة رضوان الله عليهم، بأن تقوَّلوا عليهم بما لم يقولوه، ورموهم زوراً وبهتاناً بحبّ الدنيا والحياة والجاه، كما رموهم بالتكالب على السلطة والنفوذ، واتخاذ الوسائل الدينية للتوصل إلى أغراضهم وشهواتهم. وتمكّنوا أن يُدخلوا تلك الدعاوي الكاذبة إلى بطون الكتب، كما دخلتها الإسرائيليات[1]. فلم تَخْلُ منها (للأسف) الكتب التاريخية المعتمدة، وإن رواها بعضهم بصيغة التعريض والتمريض، أو أخَّرها في الترتيب وشكَّ في روايتها، وأقحمها من باب التوسع في الرواية، وإيراد الأخبار المختلفة عن الحادثة الواحدة من باب الاستقصاء للأخبار، وتتبعها من خلال وجهات النظر المتعددة المختلفة بما يحقِّق الأمانة العلمية التي تميَّز بها علماء الأمة المسلمة.

واستمرَّ التاريخ الإسلامي يتعرض إلى حملات التشويه المتعمّدة على الأكثر، وغير المتعمّدة على الأقل، مع استمرار الأحقاد المعادية للإسلام ــ خلال مسيرته الطويلة ــ من الداخل، ثمّ من الخارج عن طريق المؤسسات التبشيرية (التنصيرية) والماسونية، والاستشراقية، تلك المؤسسات التي شوَّهت التاريخ الإسلامي تحت عناوين جذابة وبرّاقة من الطرائق العلمية، والدقة، والموضوعية، والحياد، والتجرّد للعلم والبحث، والقدرة على التمحيص والتدقيق.

وأجادت هذه المؤسسات فنّ إقامة الدعوى، ووضع الشّبهات، ووضعت الأحكام المسبقة، ثم بحثت عن دليل الاتهام، بحواش مرصوصة تعطي المظهر العلمي الدقيق. فتهجَّم رجال هذه المؤسسات على دول

---

(١) انظر حول الإسرائيليات: ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» ١/٤؛ حاضر العالم الإسلامي ــ للمؤلف، ١/٥٢.

الإسلام، ورجالاته، وعلمائه، وطعنوا في قادته، وشكّكوا في أعمالهم، وفي نواياهم.

وعمد المستشرقون إلى تفسير أحداث التاريخ الإسلامي انطلاقاً من خلفياتهم الثقافية، ووفق مناهجهم ومقاييسهم الخاصة بظروف بيئتهم، بدلاً من الاعتماد على المصادر التاريخية الصحيحة ـ وهي كثيرة ـ ويعود ذلك (على الأغلب) إلى أنّهم كتبوا في بداية أمرهم لجماهيرهم الغربيّة، دون أن يخضعوا في ذلك للنقد، فعمدوا إلى وضع الفرضيات والتعميمات، وأطلقوا عليها «نظريات»، ووصفوها بالعلمية. ونصَّبوا من أنفسهم قضاة يحاكمون أحداث تاريخ الإسلام ورجالاته. والأسوأ من كل ذلك أنهم سايروا متعمِّدين تقاليد معيَّنة شائعة بين الغربيين من تراث التعصب الصليبي ضد الإسلام، ذلك التراث الذي كرَّسه الرهبان بتشجيع من الكنيسة من أجل إيجاد حاجز منيع يحولُ دون جماهير أوروبا وعامتها ومعرفة الإسلام على حقيقته. فقام المستشرقون بمدّ الجماهير الغربية النصرانية بما يُتوقَّع منهم أن يمدّوها به، تماماً كما يمدّهم أصحاب المصانع والإنتاج، على القاعدة الرأسمالية وقانونها: «العرض والطلب».

وقد بنى المستشرقون اللاحقون على ما وضعه السابقون[1]. يقول «رودي باريت»:

«ونحن في هذا نطبِّق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها، المعيار النقدي الذي نطبِّقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدوَّنة لعالمنا نحن»[2].

---

(١) انظر ما كتبه إدوارد سعيد عن الاستشراق، حيث عرَّى الحركة الاستشراقية تماماً وكشف نيات المستشرقين الخبيثة. وانظر: نورمان دانيال، الإسلام والغرب ـ ١؛ ومناهج المستشرقين ١/٣٤٥ ـ ٣٤٦ و ٣٦٤.

(٢) إسماعيل عمايرة: «المستشرقون ومناهجهم اللغوية» ص ١١.

وبالطبع، فإن هذا المنهج قادهم إلى نتائج غير صحيحة في أغلب الأحيان، فما داموا قد انطلقوا من مسلّمات وبدهيات، ومقاييس بعيدة عن المصادر التاريخية الصحيحة، فإن النتائج التي توصَّلوا إليها بعيدة عن الصحة، رغم ما اتسمت به دراساتهم وبحوثهم من مظاهر علمية من حيث الحواشي والهوامش المرصوصة بالمصادر والمراجع. فغالبية هذه النتائج تتصف بالعمومية، والنظرة الآحادية ذات البعد الواحد، والمتأثرة بالآراء المسبقة التعسّفية المتحيزة[1]، وأبرز ما فيها قلب الأحداث حيث تصبح النتائج أسباباً، والأسباب نتائج، وتخيّر النصوص التي تحلو لهم، وإخضاعها للفكرة التي يريدون تثبيتها.

وإذا كان تشهير المستشرقين وتحاملهم قد تناول القرآن الكريم، ولحق برسول الله ﷺ وبسنَّته الشريفة فكيف بأحداث التاريخ الإسلامي؟! فقد ظهر جلياً تخبّطهم واضطرابهم في الحكم على كتاب الله، وفي الحكم على رسول الله[2]، ذلك التخبط والاضطراب الذي يذكرنا بما كان عليه مشركو قريش[3] والذي أوقعهم في التناقضات الصارخة، وانتقل ذلك إلى أحداث التاريخ الإسلامي، تجد ذلك في أقوال المستشرق نفسه الذي يتصدى لتفسير الإسلام، وأحداث تاريخه.

والنظرة الغالبة لدى المستشرقين تتَّسم بالكثير من التَّشويه المتعمّد والتّحامل، ويجد الباحث عندهم غرابة في: أنه كلَّما حاول كاتب منهم

---

(١) نورمان دانيال: «الإسلام والغرب ـ ١».

(٢) انظر: جوستاف بفانموللر: «سيرة الرسول في تصورات الغربيين» ص ١٦، عرفان عبد الحميد: «المستشرقون والإسلام» ص ١٦؛ إدوارد عطية: «العرب»، ص ٤٠.

(٣) ظهر ذلك في آيات كثيرة بأن وصف المشركون رسول الله ﷺ بالساحر، والكذاب، والكاهن، والمجنون... وما إلى ذلك من صفات دلَّت على الحيرة والاضطراب شأن الذي يناهض الحق دائماً وفي جميع العصور.

الخروج على تلك الأطرُ بدراسة الإسلام وتاريخه دراسة علمية موضوعية، انبرت الأصوات في الغرب تتّهمه بالمبالغة، أو الغرض، أو العداء للكنيسة، أو ما شاكل ذلك من اتهامات، وكأنهم يرون أن الدراسة لا تكون علمية موضوعية إلّا إذا تهجَّمت على الإسلام وعلى المسلمين، ووافقت وجهة النظر الغربية في النظرة إلى الإسلام وإلى تاريخ المسلمين، ومن أجل ذلك تجد عندهم تأويل النصوص الصحيحة، وَلَيّ أعناقها، أو التشكيك فيها، وكلّما كان الخبر أثبت بدت رغبتهم في تجريحه، أو تأويله، أو بتره وإدخاله في غير مناسبته وظروفه، ليخدم غرضاً من أغراضهم.

وبالطبع فليس من حقّنا أن ننتظر من باحث غير مسلم أن يُنصف ديننا أو تاريخنا، حتّى وإن توخّى الموضوعية والتجرُّد، ـ وقد حاول بعضهم بالفعل ـ، وعلى ذلك فليس همّي في هذا البحث مناقشة دعاوى المستشرقين لذاتها، وإنما قصدت تحذير المسلمين، وتبصير الدعاة والباحثين منهم، ولذا فسأعمد إلى مخاطبة العاطفة الإيمانية، إلى جانب مخاطبة العقل والفطرة، بصورة متّزنة إن شاء الله، حيث إنّ الأمر جدّ خطير، إذ قام كثير من باحثينا، ومؤرخينا، بنقل تفاسير المستشرقين وآرائهم، وما توصلوا إليه من نتائج، وترجمتها إلى اللغة العربية، سواء صُرِّح باسم المستشرق صاحب الرأي، أو لم يُصرَّح، فأدّى ذلك إلى شيوع تلك الآراء في أوساط المثقفين، والباحثين، وطلبة العلم، ودخلت الكتب المدرسية، والمحاضرات الجامعية[1]، فتوارثتها أجيال الطلاب من كثير من الأساتذة بدون نقد، أو تغيير، أو إعادة تقويم، وأصبح من الصعب تغييرها أو حتى تعديلها إلاَّ بجهود كبيرة، يدعمها إخلاص وإيمان ووعي.

فالتاريخ الإسلامي اليوم بحاجة إلى البُناة الذين يملكون الحسّ النقدي

---

(١) انظر: «الموالي: موقف الدولة الأموية منهم»، للمؤلف، ص ٥.

على أساس من العقيدة الإسلامية الصحيحة، أكثر منه إلى النقّاد، وكثير من قضايا تاريخنا ينتظر من يكشف عنها النقاب، أو يعيد عرضها بالأسلوب الذي يمكنه من إيصال الصوت إلى سمع الأجيال وأفئدتهم.

والنقد إذا استهدف البناء فهو جدير بالممارسة على أن لا يكون هدفاً بحدٍّ ذاته.

فلعلَّ بحثي هذا ــ وغيره من البحوث ــ يكون لبنة تُضاف إلى جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة الخيِّرة في بناء تصحيح الأخطاء، والتفسيرات التي دسَّها المستشرقون، وتلقفها تلاميذهم عنهم بقصد أو بدونه، والتَّصدّي لها بمعالجة علمية موضوعية لوقائع تاريخنا الإسلامي، وتقويم مظاهرها المختلفة من خلال المصادر الأصلية وممارسة النقد التاريخي من خلال فهم إسلامي. والله هو الموفق إنه نعم المولى، ونعم النصير.

المؤلِّف

سرعة الفتوحات الإسلاميّة

تمت الفتوحات الإسلامية بسرعة عجيبة، والأعجب من سرعتها ثباتها، واستمرارها، وما تمخَّض عنها من نتائج بقيت آثارها[1]، فاسترعى ذلك انتباه الباحثين الغربيين، فذهبوا في تحليل أسبابها مذاهب شتى متناقضة.

يقول «لورد ستروب»:

«فكلّما زدنا استقصاءً باحثين عن سرٍّ تقدم الإسلام، زادنا ذلك العجب العجاب بهراً، فارتددنا عنه بأطراف قاسرة، عرفنا أن الأديان العظمى إنما نشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً، متلافيات كل صعب، حتى أن قيَّض الله لكل دين ما أراده من ملك ناصر، وسلطان قاهر، انتحل ذلك الدين، ثم أخذ في تأييده، والذبِّ عنه، حتى رسخت أركانه، وصَفَت جوانبه، فبطل النصرانية «قسطنطين»، وبطل البوذية «أسوكا»، وكل منهما ملك جبار، أيَّد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والأَيْد، إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية، يموت فيها كلّ شيء، حيث القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ، فسرعان ما شرع يتدفَّق، وينتشر، وتتَّسع رقعته في جهات الأرض مجتازاً أفدح الخطوب، وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر، ولا أزر مشدود. وعلى شدَّة المكاره، فقد نُصر الإسلام نصراً عميقاً،

---

(١) قارن ذلك بفتوحات (الإسكندر المقدوني) السريعة، وتلاشي آثارها.
انظر: عمر فروخ في كتابه «تجديد التاريخ»، ص ٥٥ ــ ٦٧.

إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت الراية الإسلامية خفاقة في البرانس[1]، حتى هيمالايا[2]، وفي صحارى أواسط آسيا، حتى أواسط أفريقيا»[3].

ويقول «ول ديورانت»:

«توفي جستنيان[4] في عام ٥٦٥م، وهو سيِّد إمبراطورية عظيمة، وبعد خمس سنين من وفاته، ولد محمد [ﷺ] من أسرة فقيرة، في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدبة، قليلة السكان، أهله من قبائل البدو الرحَّل، إذا جمعت ثروتهم كلَّها فإنها لا تكاد تكفي إنشاء كنيسة آيا صوفيا[5]، ولم يكن أحد في ذلك الوقت علم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو[6] قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسيا، وجميع بلاد المغرب[7]، ومصر، ومعظم شمالي أفريقيا، وساروا في طريقهم إلى إسبانيا.

والحق أن ذلك الحدث الجلَل الذي تمخَّضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط، ونشر دينها الجديد

(١) شمال شبه جزيرة إيبريا التي تضم إسبانيا والبرتغال.
(٢) الجبال المتفرعة من هضبة البامير إلى جهة الشرق شمال شبه القارة الهندية.
(٣) أنور الجندي: «الإسلام وحركة التاريخ»، ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٤) حكم الإمبراطورية الرومانية ٥٢٧ ـ ٥٦٥م، وحاول إعادة وحدتها، إذ انشقت إلى شرقية وغربية بعد عهد الإمبراطور «ثيودوسيوس» عام ٣٩٥م، فقام بإجراءات دينية وثقافية وعمرانية، ومشاريع عسكرية. واشتهر بالقانون الذي حمل اسمه.
انظر: عبد القادر أحمد يوسف: «الإمبراطورية البيزنطية»، ص ٥٣ ـ ٨٨.
(٥) أعظم كنيسة في القسطنطينية، حوَّلها محمد الفاتح العثماني إلى مسجد بعد أن فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م.
(٦) وفاته أن العرب بدو وحضر.
(٧) يعني المغرب الأدنى ـ تونس، والأوسط ـ الجزائر، والأقصى ـ مملكة المغرب.

في ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى»[1].

وبالفعل كانت الفتوحات الإسلامية سريعة، وكانت نتائجها عظيمة باقية، وستبقى الحيرة، وسيبقى الاضطراب في تفسير هذه الحركة عند من لم يقتبس نوراً من قبس الإسلام، فلا يدرك عظمة هذا الدين ـ الذي ارتضاه الله سبحانه للبشرية جمعاء ـ إلّا من ارتضاه ديناً، ونال النعمة باعتناق عقيدته.

قال تعالى:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[2].



(١) قصة الحضارة ١٣/٦ ـ ٧، وانظر دومنيك سورديل: «الإسلام في القرون الوسطى»، ص ٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

عالمية الدعوة الإسلامية

اتّسم الإسلام بالطابع العلمي منذ نزلت أول آية على رسول الله ﷺ في غار حراء ﴿اقرأ﴾. دعوة آمرة إلى الثقافة، إلى العلم، إلى الفكر، إلى البحث المستفيض في ملكوت الله، في السماء والأرض، في الجبال، في النفس، في كل ما خلق الله سبحانه وتعالى من كائنات صغرت أم كبرت[1]، دعوة ذات نظرة شمولية إلى الكون والإنسان والحياة وما قبل الحياة وما بعدها.

وقد تتابعت بعدها الآيات، يلقيها جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ من لدن حكيم خبير، خالق السموات والأرض، فيعيها محمد ﷺ وعياً كاملاً، ويبلِّغها بأمانة وقوة وإخلاص، تبيِّن ــ والدعوة لم تزل في مكة لم تخرج عن نطاقها ــ أن الدعوة عالمية، وليست محصورة بشعب من الشعوب، ولا محدودة بمكان ولا بزمان، فهي للبشر عامة، ولعموم الأزمنة والأمكنة، حيث إن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وبه تم بناء الإسلام.

ومن الآيات المكية التي أكّدت عالمية الدعوة:

قوله تعالى:

﴿إن هو إلاّ ذكر للعالمين﴾[2].

---

(١) انظر: عبد الحليم محمود: «القرآن والنبي»، ص ١٧٩.

(٢) سورة ص: الآية ٨٧.

وقوله تعالى:

﴿إن هو إلاَّ ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً، ويحقَّ القول على الكافرين﴾[1].

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[2].

وقوله سبحانه:

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[3].

وقوله جلَّ وعلا:

﴿وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾[4].

وكانت المدينة المنورة «يثرب» هي أول فتح إسلامي مجيد، فتحت قلبها بالدعوة، فشرفت بهذا الاسم «المدينة»[5]، واختصت به، فاستقبلت المهاجرين، ونصرت رسول الله ﷺ، واحتضنت الدعوة، وأصبحت نقطة ارتكاز انطلقت منها الدعوة، حين تكونت فيها أول حكومة إسلامية برئاسة الرسول الكريم محمد ﷺ، وأسلمت له قيادها، فطبَّق أحكام الإسلام في الداخل، وأقام حياة إسلامية كاملة، ثم حمل الدعوة إلى الخارج بالجهاد في سبيل الله.

وقد بنيت الدولة الإسلامية على أساس العقيدة الإسلامية، وعلى أساس

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة الفرقان: الآية ١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٤) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٥) انظر: ابن منظور «لسان العرب» ٤٠٢/١٣.

الآيات التي استمرَّت تتنزَّل على الرسول الأمين ﷺ، إلى أن تمَّ هذا الدين في السنة العاشرة من هجرة المصطفى ﷺ في قوله سبحانه:

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[1].

ومنذ تأسيس دولة الإسلام تخطَّت الحدود الأرضية، وجعلت التقوى أساس التفاضل، استجابة لقوله سبحانه وتعالى:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2].

وأكَّد رسول الله ﷺ هذا المبدأ الرائع في حجة الوداع، فقال:

«... إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي فضل على عجمي، ولا لأبيض على أسود فضل إلَّا بالتقوى»[3].



مهمة الأمة المسلمة حمل الدعوة وتبليغها

بهذه الدعوة الشاملة عرف المسلم غاية وجوده في هذه الحياة، وأدرك مغزاها في قوله سبحانه وتعالى:

﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلَّا ليعبدون﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣. وانظر: ابن كثير «البداية والنهاية» ٥/١٧٧.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) انظر: «تاريخ الدعوة الإسلامية»، للمؤلف، ص ٢٢٩.

(٤) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

وأدرك المسلم مهمته في هذه الحياة، فاندفع لإرضاء الله سبحانه وتعالى، فتمثل الإسلام عقيدة وسلوكاً ونظام حياة، وحمل الدعوة، وعمل على تبليغها إلى البشر، واستجاب لفريضة الجهاد من أجل تبليغ الدعوة.

وبالجهاد قامت الفتوحات الإسلامية، وقد جاءت أدلة وجوبه عامة ومطلقة، تشمل الحرب الدفاعية، ومبادأة العدو بالقتال، والحرب المحدودة، وغير المحدودة[1]. ويهدف إلى التغلب على العقبات، وتحطيم الحواجز التي تعترض طريق الدعوة وتحول دون تبليغها، فغايته أن يكون الحكم لله، فلا تترك طائفة حاكمة تمنع دعوة الإسلام من الانتشار، ودفع الظلم وردّ كيد الظالمين.

قال تعالى:

﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاَّ أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[2].

ويهدف إلى ردّ الاعتداء:

قال تعالى:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين﴾[3].

وإلى نجدة المستضعفين في الأرض:

---

(١) انظر: «تاريخ الدعوة الإسلامية»، للمؤلف، ص ١٣١ ــ ١٣٧.

(٢) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

قال تعالى:

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً، واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[1].

وإلى حماية الدين والتمكين من التوحيد:

قال تعالى:

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلاَّ على الظالمين﴾[2].

وقد سار رسول الله ﷺ في مراحل الجهاد مرحلة بعد مرحلة[3] إلى أن وصل مرحلة وجب فيها قتال المشركين جميعاً سوى المعاهدين، حين نزل قوله تعالى:

﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين...﴾[4].

فاستقر حكم الجهاد في الإسلام على وجوب قتال كل من لم يقبل دعوة الإسلام، أو الخضوع لحكمه، وهذا بالطبع إذا توفرت القوة المادية، والعدة اللازمة للمسلمين.

وأصبح الجهاد في سبيل الله أبرز مميزات التاريخ الإسلامي، والقتال في سبيل الله أعظم مراتب الجهاد. وأخبر الرسول ﷺ أمته: «إن الجنة تحت ظلال السيوف»[5]. وقال:

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٣.

(٣) وقد بيَّن ابن القيم هذه المراحل. انظر: «زاد المعاد» ٢/٩٠ ــ ٩١.

(٤) سورة التوبة: الآية ١.

(٥) صحيح البخاري، في الجهاد، فتح الباري ١٧٣/٦.

«والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلَّفت عن سرية تغدو في سبيل الله. والذي نفسي بيده لوددت أني أُقتل في سبيل الله، ثمَّ أُحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا، ثم أُقتل»[1].

ويجب ملاحظة أن الجهاد في سبيل الله بالقتال لا يكون لحمل الناس على اعتناق الإسلام، وإنما هو لوقف إكراه الناس على عدم الدخول في الإسلام، والتمكين لحكم الله، والخضوع لأوامره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وإذا كان أصل القتال المشروع وهو الجهاد، بقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع ذلك قوتل باتفاق المسلمين»[2].

وقد ورد تعبير «في سبيل الله» مرتبطاً بالجهاد والقتال اثنين وثلاثين مرة في القرآن الكريم. ولا يكاد أمر بالقتال يخلو من هذا التعبير في سنة المصطفى ﷺ. فكانت حركة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وبعدهم، ثمرة من ثمرات هذا الجهاد حققت للدعوة آفاقاً واسعة.

وقام رسول الله ﷺ إلى جانب الجهاد (القتال) في سبيل الله بإرسال الكتب والرسل إلى من عاصره من الملوك والأمراء والقادة والزعماء من أجل تبليغ الدعوة، والدعوة إلى الله.

ويبدو أن إرسال الرسول ﷺ للكتب والرسل بدأ بقيام حكومة الإسلام

---

(١) صحيح البخاري، في الجهاد، فتح الباري ٦/١٦.

(٢) «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، ص ١٨.

في المدينة، وبعثة الرجيع[1]، وبئر معونة[2]، وسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل[3] وغيرها، أمثلة على ذلك. ثم ازدادت هذه المراسلات بعد هدنة الحديبية عام ٦هـ[4].

وكان رسول الله ﷺ يرسل الرسل والكتب حسب الظروف والمناسبات، فأرسل مثلاً كعب بن عمير في خمسة عشر رجلاً إلى ذات أطلاح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام، فكان أن استشهدوا جميعاً، ولم ينجُ إلاَّ رئيسهم

---

(١) عام ٣هـ. والرجيع ماء لهذيل بين مكة والطائف، وهي غير الرجيع التي نزلها الرسول ﷺ بين خيبر وغطفان عام ٧هـ. [انظر: ياقوت ٣/٢٨ ـ ٢٩]. واستشهد في الرجيع أفراد البعثة الستة غدراً وفيهم عاصم بن الأقلح حميّ الدّبر رضي الله عنه. [ابن هشام: السيرة ٣/١٦٩، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/٦٣].

(٢) وبئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وكان عدد الدعاة سبعين أو أربعين رجلاً عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه، غدر بهم عامر بن الطفيل العامري، فاستشهدوا ما عدا عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه الذي وقع أسيراً فأطلقه عامر [انظر: ابن هشام: ٣/٩٨٣، ابن سعد: الطبقات ٢ ق ١/٣٦؛ الطبري: تاريخ ٢/٥٥٠، ياقوت الحموي: ١/٣٠٢].

(٣) تقع دومة الجندل إلى شمال المدينة المنورة على مسافة ٥٠٠ ميلاً، غزاها رسول الله ﷺ عام ٥هـ. [ابن هشام: السيرة ٣/٢١٣]، وأرسل إليها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه [انظر: ابن هشام: السيرة ٤/٦٣١، ابن سعد: الطبقات ٢ ق ١/٦٤، الطبري: تاريخ ٢/٥٥٠].

(٤) وكان من أثرها انتشار الإسلام في معظم أرجاء شبه الجزيرة. يقول الإمام الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه... فقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك، وأكثر». [الطبري: تاريخ ٢/٦٣٨، الكامل في التاريخ ٢/٢٠٥، ابن هشام: السيرة ٤/٦٥٠، «تاريخ الدعوة الإسلامية»، للمؤلف، ص ١٩٢].

كعب بن عمير الذي عـاد جريحـاً[1]، فكان أن وجـه ﷺ سريـة مؤتة لتـأديب القبـائـل الغـادرة، ولتكـون طليعـة حملة أكبـر لفتـح الشـام، وكـان ذلـك عام ٧هـ[2].

ووجـه رسـول الله ﷺ عمـرو بن العـاص السهمي رضي الله عنـه على رأس غزوة ذات السلاسل[3]، وأمدَّه بأبـي عبيدة عامر بن الجراح (أمين الأمة) من المهاجرين الأولين، وفيهم أبو بكر وعمـر رضي الله عنهما، فـوطىء عمرو أرض طيء[4]، وبلي[5]، وعـذرة[6]، وبلقين[7] ودوَّخهـا، فكـرَّس هيبـة الإسـلام في شمال الحجـاز. وأصبح مجـالاً رحبـاً للدعـاة إلى الله. فـوصـل تأثيرهم إلى أطراف الشام قبل غزوة الفتح عام ٨هـ.

وبعد فتح مكـة، وانهيار الأحـلاف الوثنيـة في حنين قاد رسـول الله ﷺ بنفسه غزوة تبوك عام ٩هـ. ومثّلت هذه الغزوة تظاهرة إسـلامية عـظيمة، فقـد وصل عدد الجيش الإسـلامي فيها ثـلاثين ألفاً، وهـو أكبر جيش شهـدته شبـه الجـزيرة العـربية حتى ذلـك التاريـخ، تنافس المسلمـون في تجهيزه في زمن عسـرة، وشدة من الحـرّ، وحين طابت الثِّمـار وأحبَّت الظلال، فسمي «جيش

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/٢٤١؛ المقريزي: إمتاع الأسماع ١/٣٤٤.

(٢) الـواقدي: المغـازي ٢/٧٥٧؛ ابن هشام: السيـرة ٣/٣٢٤؛ ابن سعـد: الـطبقـات ٢ ق ١/٩٣؛ الطبري: تاريخ ٣/٣٧؛ ابن الأثير: الكامل ٢/١٥٩.

(٣) السلاسل من أرض جذام أول بلاد الشام، وهي غير ذات السلاسل التي حدثت فيها معركة بين المسلمين والفرس في العراق بعد حروب الردَّة. [انظر: مغازي الواقـدي ٢/٧٧١؛ المقريزي: إمتاع الأسماع ١/٣٥٣].

(٤) و (٥) و (٦) و (٧) أراضٍ شـمـال الحجـاز جهـة الشـام فيمـا يسمى اليـوم جنـوب الأردن. وكلّها كانت تتبع النفوذ البيزنطي في الشام.

العسرة»، وأثبتت أمة الإسلام أنها أمة الجهاد بالفعل، وأنها أمة الدعوة[1].

وفي العام نفسه (٩هـ) وفدت الوفود إلى المدينة المنورة، فقدمت ملوك حمير من اليمن مقرين بالإسلام[2]، وأسلم بعض عرب الشام مثل فروة بن عمرو الجذامي، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، وقد صلبه الروم بسبب إسلامه [3].

وبهذا يتضح أن الرسول ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلَّا وقد وضَّح معالم الدعوة الإسلامية قولاً وعملاً، وبيَّن طرق تبليغها وفق قدرة المسلمين وظروفهم. وبيَّن أن **عهد الراشدين هو أفضل عهود الدعوة الإسلامية بعد عهد النبوة**، وأن الراشدين هم الأسوة الحسنة للدعاة إلى الله بعد رسول الله ﷺ وطريقتهم حجة، حيث قال ﷺ:

«عليكم بسنتي، وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[4].

وجاء في الصحيحين أنه ﷺ قال:

«كيف ترون القوم صنعوا حين فقدوا نبيَّهم، وأرهقتهم صلاتهم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «أليس فيهم أبو بكر وعمر، إن يطيعوهما فقد رشدوا، ورشدت أمتهم، وإن يعصوهما فقد غووا، وغوت أمتهم، قالها ثلاثاً»[5].

---

(١) انظر: الواقدي: المغازي ٣/٩٩٩ ـ ١٠١٥؛ المقريزي: إمتاع الأسماع ١/٤٤٦؛ الطبري: تاريخ ٣/١٠٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٢٧٧؛ ابن هشام ٤/١٣٥ ـ ١٤٨؛ ابن سعد: الطبقات ٢ ق ١/١١٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٩٨ ـ ١٠٠؛ ابن هشام: ٤/٥٨٨ ـ ٥٨٩.

(٣) ابن هشام ٤/٥٩١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٢٠٣.

(٤) رواه أبو داود رقم ٤٦٠٧؛ والترمذي رقم ٢٦٣٨؛ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٢، وأخرجه الإمام أحمد. انظر: إعلام الموقعين لابن القيم ٤/١٤٠.

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة ٣/١٦٠.

الفتوحات الإسلامية
وفق خطة تحقيق فرضية الجهاد

يتضح من العرض السابق أن الفتوحات الإسلامية لم تأت وليدة الصدف، ولم تكن ارتجالية، فقد سارت وفق خطّة وضع أسسها وأرسى قواعدها رسول الله ﷺ. وضرب المثل الرائع لأمته أثناء مرضه وقبل وفاته حين تلكأ جيش أسامة الذي جهزه لغزو الشام، فأمر بإنفاذه[1].

فسار أبو بكر والخلفاء من بعده (رضي الله عنهم) على هذه الأسس والقواعد، فأنفذ أبو بكر رضي الله عنه بعث أسامة رغم ظروف المدينة (قاعدة دولة الإسلام) الحرجة بعد وفاته ﷺ[2]، ورغم معارضة بعض وجوه المسلمين بسبب ردة العرب ردّة عامة أو خاصة، ورغم تطلُّع القوى المعادية للإسلام والمسلمين إلى القضاء على الدولة الإسلامية. كما وجَّه عبادة بن الصامت رضي الله عنه إلى هرقل إمبراطور الروم البيزنطيين يدعوه إلى الإسلام أو يؤذنه بحرب، فقام عبادة بمهمته[3].

وبعد أن تمَّ القضاء على حركة الردَّة في شبه الجزيرة العربية، وجَّه أبو بكر رضي الله عنه الجيوش الإسلامية إلى العراق والشام في وقت واحد،

---

(١) ابن هشام: السيرة ٤/٦٥٠، ابن الأثير: الكامل ٢/٢١٥؛ الواقدي: المغازي ١١١٨/٣؛ البخاري ٦٩/٧ و٣٨٢، ٨/١١٥، ١١/٤٥٥؛ ومسلم رقم ٦٣ و ٦٤، و ٢٤٢٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٢٦، الطبقات لابن سعد ٢ ق ١/١٣٧؛ الواقدي: المغازي ١١٢٢/٣.

(٣) محمد عزة دروزة: «تاريخ الجنس العربي» ٧/٦٥، عن الأخبار الطوال للدينوري.

للاصطدام بأعظم دولتين آنـذاك، دولتي الفرس والـروم. ولم تتردد الجيـوش الإسلامية فسارت تحمل عقيدة الإسلام، وتعتزّ بها، وكان الظفر بالشهادة غاية ما يتمناه المسلم، وبذلوا أرواحهم في سبيل الله، مؤمنين بوعده جلَّ وعلا في قوله:

﴿ولا تحسبنَّ الـذين قتلوا في سبيل الله أمـواتاً، بـل أحياء، عنـد ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بـالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم، ألَّا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

سـار الجنـد الإسـلامي وقـادتـه وهم على يقين أنهم ينتـظرون إحـدى الحسنيَيْن ــ الشهـادة أو النصـر ــ وهـذا يـوضـح أن الجهـاد في سبيـل الله، وتحقيق فـرضيته كـان الدافـع الوحيـد للفتـح الإسـلامي. فقـابـل المسلمـون أعداءهم في قلة من العدد والعدَّة.



(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩، ١٧٠.

مبشرات الفتح

تحركت القوات الإسلامية وهي على ثقة تامة بالنصر، أو الشهادة، وقد امتلأت نفوسهم طمأنينة، بالمبشرات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسوله في آيات تُتلى، في مثل قوله سبحانه وتعالى:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه، ولو كره المشركون﴾(١).

كما بشَّرهم رسول الله ﷺ بفتح اليمن، والشام، والمشرق والمغرب حين كانوا في أشدِّ حالات الضيق في غزوة الأحزاب يوم الخندق عام ٥هـ(٢). وتحقق ذلك الوعد بفتح اليمن، فكانوا على يقين بتحقيق

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٣.

(٢) قال ابن إسحق: «وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت علي صخرة، ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى. ثم ضُرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى. قال: قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوَقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم، قال: أما الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق». [ابن هشام: السيرة ٣/٢١٩، وانظر: ابن كثير البداية ٤/٩٩ ـ ١٠٠].

فلمّا اشتد أمر حصار المسلمين نجم النفاق وقال بعضهم: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه من الغائط» [ابن هشام ٣/٢٢٢]. وأما المؤمنون فما زادهم ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً [انظر: سورة الأحزاب التي بيَّنت ذلك بتفصيل].

الفتوحات الأخرى.

وحملوا البُشرى بفتح العراق والمشرق حين وعد رسول الله ﷺ سراقة بن مالك بن جعشم سواري كسرى عندما لاحقه أثناء هجرته ﷺ طمعاً في الجُعل الكبير الذي جعلته قريش لمن يأتي بالنبي ﷺ حيّاً أو ميتاً[1].

وعندما وفد عديّ بن حاتم الطائي[2] إلى رسول الله ﷺ، بشَّر الرسول ﷺ بفتح العراق والمشرق مؤكداً البشارة السابقة، حين قال له:

«. . . إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتَّبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة؟

قلت (أي عدي رضي الله عنه): لم أرها، وقد سمعت بها.

قال: فوالذي نفسي بيده ليتمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة[3] من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحنَّ كنوز كسرى بن هرمز.

قال: قلت: كنوز ابن هرمز؟!

قال: نعم! كسرى بن هرمز.

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٧/٧٥؛ ابن الأثير: الكامل ٢/٧٤.

(٢) كان عدي بن حاتم شريفاً في قومه طيء، فرَّ إلى الشام عندما حذَّره عين له بالمدينة من مسير علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ليهدم صنم «الفلس» صنم طيء. وبقي في الشام إلى أن قدمت إليه أخته سفانة بنت حاتم بعد أن عفا عنها رسول الله ﷺ، فوفد إلى النبي ﷺ وأسلم. [انظر ابن سعد: الطبقات ١ ق ٢/٦٠، ابن هشام: السيرة: ٤/١٨٩، تاريخ الطبري ٣/١١٢ ــ ١١٥].

(٣) الظعينة بمعنى المرأة.

وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد. . .»[1].

وبشَّر رسول الله ﷺ المسلمين بفتح الشام حين وفد تميم الداري إليه، فأقطعه حبرى وبيت عينون، ومسجد إبراهيم عليه السلام (حبرون)، وكتب له بذلك كتاباً[2]. وهذه من أرض الشام التي كانت تخضع آنذاك لحكم الدولة البيزنطية (الإمبراطورية الرومانية الشرقية) فهي بذلك بشارة بفتح الشام.

وقد حرَّم الله سبحانه وتعالى على الروم أن يملكوا بلاد الشام برمَّتها إلى آخر الدهر، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر، فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله عزَّ وجلَّ»[3].

وهذه بشارة واضحة بفتح الشام والعراق وبلاد فارس.

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص أي المدينتين تُفتح أولاً: القسطنطينية أم رومية؟!

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٦٦؛ ابن هشام: السيرة ٤/٥٨١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٣٥، وتنتسب إليه (لتميم الداري) أسرة التميمي التي لا تزال تقيم في مدينة الخليل (حبرون) وفي بيت المقدس من أرض فلسطين. وانظر: ياقوت: مادة حبرون ٢/٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/٥٩؛ ويعلّق ابن كثير رحمه الله قائلاً: «وقد وقع ما أخبر به صلوات الله وسلامه عليه، وسيكون ما أخبر به جزماً، لا يعود ملك القياصرة إلى الشام أبداً، لأن قيصر علم جنس عند العرب، يطلق على كل من ملك الشام مع بلاد الروم، فهذا لا يعود لهم أبداً».
وقد يقول قائل إن الصليبيين حكموا بعض أجزاء بلاد الشام، وإن الإنجليز والفرنسيين حكموا بلاد الشام، إلَّا أن أولئك جميعاً لم يحكموا بلاد الروم والشام كاملة أبداً. وبلاد الروم تعني (آسيا الصغرى ـ تركيا ـ وشرق أوروبا).

فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج كتاباً. فقال:

«بينما نحن حول رسـول الله نكتب، إذ سُئل رسـول الله، أي المدينتين تفتح أولاً؟

فقال: مدينة هرقل»[1].

وهـذه بشارة بفتـح «القسطنـطينية»[2] عـاصمة الإمبـراطوريـة البيزنـطية آنذاك. وبشارة بفتح مدينة «روما»[3] مركز البابويـة النصرانيـة الكاثـوليكية في إيطاليا.

وبشَّر الرسول ﷺ المسلمين بفتح مصر، في قوله ﷺ:

«إنكم ستفتحـون مصـر، وهي أرض يسمى فيـهـا القـيـراط، فـإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً.

---

(١) رواه عن ابن عمـر (رضي الله عنه) الـدارمي، وأحمد، وابن أبـي شيبـة، والحـاكم، والمقدسي.

(٢) كانت القسطنطينية عاصمة الإمبـراطوريـة البيزنـطية، ودفعت هـذه البشارة المسلمين لمحاولات فتحها في فتـرة مبكرة من تـاريخ الإسـلام، فحاصـروها أكثـر من مرة في عهد معاوية بن أبـي سفيان رضي الله عنه (٤٠ ـ ٦٠هـ)، وارتدوا عنها لأسباب ليسَ هنا موضع تفصيلها. كمـا حاصـرها المسلمـون بقيادة مسلمة بن عبد الملك في زمن سليمـان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ). وأقـاموا سنـة على حصارهـا إلى أن أمـرهم عمـر بن عبد العـزيز رحمـه الله بالانسحـاب عام ٩٩هـ، لأسبـاب ليس هنـا مـوضـع التفصيـل فيهـا. وبقي الأمـل يـراود المسلمين بفتحهـا إلى أن تحقَّق ذلـك على يـد محمـد الفاتـح العثماني عـام ١٤٥٣م/٨٥٧هـ. وأصبحت عاصمـة للدولة العثمـانية الإسلامية باسم الآستانة أو استانبـول إلى سقوط الدولة العثمانية عام ١٩٢٤م.

(٣) وروما مركز البابوية حاول المسلمون فتحهـا، وحاصـروها في إحـدى المرات إلى أن اضطر البابا إلى دفع جزية كبيرة للمسلمين مقابـل انسحابهم منهـا. والحديث بشـارة باقية بفتحها بإذن الله، وبشارة بسيادة الإسلام.

أو قال: ذمة وصهراً»[1].

يشير بذلك إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وإلى مارية القبطية أم إبراهيم التي أهداها المقوقس حاكم مصر لرسول الله ﷺ، وأنجبت ابنه إبراهيم.

هذه المبشّرات من رسول الله ﷺ ليست تنبؤات بشرية، تصيب مرة وتخطىء مرات، ولكنها مبشرات يقينية صدرت من رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى: ﴿إن هو إلَّا وحي يوحى﴾[2].

وأضافت المبشرات دليلًا صادقاً على وجود **خطة منظمة للفتح الإسلامي**، ودلَّت على **عدم ارتجالية الفتوح**، فقد دفعت المسلمين لتنفيذ خطط الفتح زمن الراشدين والأمويين وهم على يقين من تحقّق النصر. وجعلت أبا هريرة رضي الله عنه يقول حين افتتحت الأمصار زمن عمر، وعثمان رضي الله عنهما:

«افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلَّا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك»[3].

وكان الجند الإسلامي كقادته وخليفته على يقين من صدق هذه المبشرات، فاندفع لنيل النصر أو الشهادة.

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب وصية النبي بأهل مصر، فتح الباري ٦/٨٠٢، البلاذري ٢٢٠.

(٢) سورة النجم: الآية ٣.

(٣) ابن هشام: السيرة ٣/٢١٩.

ففي معركة اليرموك يقول رجل لأبي عبيدة رضي الله عنه وقد اندفع لينال الشهادة:

«فهل لك إلى رسول الله حاجة؟

فقال أبو عبيدة: نعم، تقرئه مني السلام، وتخبره أنَّا قد وجدنا **ما وعدنا** ربنا حقاً».

وتقدم الرجل فكان أول من استشهد رحمه الله تعالى[1].

وفي يوم القادسية خطب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في جيش الإسلام ـ على عادة قادة المسلمين ـ ورغَّبهم في الجهاد، وأعلمهم ما وعد الله نبيّه من النصر، وإظهار الدين، ورغَّب كل رجل من المسلمين صاحبه[2].

والأمثلة كثيرة تلك التي تؤكد المبشرات بالفتوحات الإسلامية، وتؤكد على وجود خطة للفتوحات الإسلامية وعدم الارتجال، والتي تؤكد على الدافع الأساسي للفتوحات الإسلامية ألا وهو القيام بفرضية الجهاد، ذروة سنام الإسلام.



(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، مخطوط ١/٢٥٩.

(٢) اليعقوبي: تاريخ ٢/١٤١.

دعوى المستشرقين في عدم عالمية الدعوة الإسلامية

حاول بعض المستشرقين إنكار بعثة رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، متجاوزين ما ورد من آيات محكمات بيِّنات في الذكر الحكيم، ومتجاوزين إجماعِ المسلمين على هذا الأمر، وما أكدته الوقائع الثابتة، فقاموا بدراسات متجنية في معظمها على الإسلام والمسلمين، بحيث نصبوا من أنفسهم حاكماً على تاريخ الإسلام، وتاريخ الدعوة. إلَّا أن بعضهم لم ينكر ذلك مثل «ليوتي كاتياني» في كتابه: «حوليات الإسلام»(١).

و «نولدكه» في كتابه: «تاريخ القرآن».

و «اجناس جولد تسيهر» في كتابه: «العقيدة والشريعة في الإسلام»(٢).

فقد ذكر هؤلاء أن الرسول ﷺ بُعث إلى الناس كافَّة.

وأما «ول ديورانت» فقد ذكر ما ذكره المؤرخون من إرسال الرسل ولكنه أضاف مشككاً ومناقضاً لنفسه:

«ولكن يبدو أنه (أي النبي ﷺ) لم يفكِّر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب»(٣).

وسخر بعض المستشرقين، وشكك في إرسال الكتب والرسائل إلى الأمراء والملوك الذين عاصروا الرسول ﷺ، بحجة عدم العثور على ما يدلّ على شيء من ذلك في الوثائق التي خلَّفها هؤلاء مثل «برنارد لويس» في كتابه: «السياسة والحرب في الإسلام».

والحجة تلك التي تذرَّعوا بها واهية، فطبيعة الدعوة الإسلامية وعالميتها وشمولها، وإجماع أصحاب السير والمغازي والمؤرخين المسلمين دليل كبير على صحة هذه الكتب. ورواة المسلمين من الثقة بحيث لا يفوتهم مثل هذا الأمر الخطير، وإن زعم الزاعمون غير ذلك.

---

(١) Geetani Annali del 'Islam Vol. VP 223.

(٢) صفحة ٣٩، ٤٠.

(٣) قصة الحضارة ١٣/٢١.

دعوى ارتجالية الفتوحات الإسلامية وعدم وجود خطة

قام رسول الله ﷺ في مكة المكرَّمة بتبليغ الدعوة بالطرق والوسائل المتاحة له، وكان يتصل بالقبائل، ويحضر الأسواق، ويدعو الزعماء لنصرته إلى أن كانت بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة من البعثة. ثم بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة من البعثة مع أهل المدينة، وتكوَّنت دولة الإسلام، فقام بعبء الجهاد في سبيل تبليغ الدعوة إلى جانب إرساله الرسل والكتب إلى من عاصره من الملوك والقادة. واتَّضحت معالم هذه الوسيلة الأخيرة بعد هدنة الحديبية عام ٦هـ كما بيَّنَّا. وهذه الكتب واضحة الدلالة على تطبيق رسول الله ﷺ عملياً لما تردَّد في القرآن الكريم من دعوة الناس جميعاً لاعتناق الإسلام. فكانت خطة واضحة، استمرت في وضوح معالمها إلى وفاته ﷺ. وكانت غزواته وسراياه كثيرة تدل على التطبيق العملي لفرضية الجهاد في سبيل الله[1]، وتظهر خطته في نشر الدين خارج شبه الجزيرة العربية، سار عليها خلفاؤه رضوان الله عليهم فكانت حركة الفتوحات.

وكانت خطة واضحة للفتوحات من أجل تبليغ الدعوة، وهي خطة راشدة مستنيرة حتى أن أبا بكر رضي الله عنه منع من ارتدَّ من الاشتراك في الفتوحات الأولى[2]، وهذه الخطة تُقدم إذا كان الإقدام حزماً ومناسباً، وتتأنَّى إذا كان التأنّي خيراً للمسلمين وللشعوب غير المسلمة من أهل البلاد

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٢١٥ ــ ٢٢٣.

(٢) الطبري: تاريخ ٣/٣٤٧، ابن عساكر ١/٢٢٢.

المفتوحة. فتردَّد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الانسياح في بلاد فارس[1]، وفي فتح مصر[2] (إن صحَّ ذلك)، وفي فتح أفريقيا[3]، وفي فتح الهند[4]، لم يكن مبعثه عدم الرغبة في فتح هذه البلاد أمام دعوة الإسلام، ولكنه ضمن خطة، لتثبيت المكاسب الإسلامية، وللتمكن من إقامة الإسلام في الأمصار المفتوحة، واستنهاض طاقات شعوبها في ظل راية الإسلام، وتجميع هذه الطاقات، ثم توجيهها الوجهة الصالحة من أجل الدعوة، لتصبح تلك الأمصار نقاط ارتكاز جديدة، تنطلق منها الدعوة، وتمتدُّ إلى الأقطار الأخرى، وتسهم فيها شعوب تلك الأقطار بدلاً من أن تكون شوكة في جنب المجاهدين، أو خنجراً يسدَّد إلى ظهورهم من خلفهم. إذ كان دور الجيوش الإسلامية إزالة العقبات وتحطيم الحواجز التي تعترض طريق الدعوة، ليبدأ دور الدعاة بفتح القلوب[5]. وكانت توجيهات عمر بن الخطاب رضي الله عنه لولاة المسلمين للقيام بنشر الإسلام عامة. فقد كتب إلى والي البصرة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كتاباً حثَّه فيه على إقامة الحدود، وعدم إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وعدم التهاون في معاقبة الفساق، وأن يتألف الناس بالتحبب والتواضع، والاهتمام بأمور المسلمين. وبأن يكون قدوة حسنة لهم في عبادته ومأكله ومشربه ومسكنه ومركبه. وختم الكتاب بقوله:

---

(١) وذلك ليكسب الوقت لتنظيم الفتوحات في العراق، فمصَّر البصرة والكوفة، وأصبحتا قاعدتين لانطلاق الإسلام، ونشر الدعوة، وضرب المسلمون الجزية العادلة، وعمروا عامر البلاد، وشقوا الأنهار إلى خرابها ومواتها، فصارت في غاية العمارة والجودة. انظر: البداية والنهاية ٧/٩٣.

(٢) انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها. ٨٥؛ البلاذري: فتوح البلدان ٢١٩.

(٣) انظر: البلاذري: فتوح البلدان ٢٢٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/٢٤.

(٥) انظر: تاريخ الدعوة الإسلامية، للمؤلف، ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨.

«. . . واعلم أن للعامل مـرداً إلى الله، فإذا زاغ العـامل زاغت رعيتـه، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته»[١].

وأحـداث التاريـخ الإسلامي والنصـوص الثابتـة تؤكد على وجـود خطة الفتـح الإسـلامي، وعـدم الارتجـال، ولكن كثيـراً من المستشـرقين تجـاهـل الأخبار الصحيحة الثابتة، وصوَّر الفتوحات الإسلامية على أنها حركة ارتجالية هـدفها الغـالب القوي (على زعمهم) رغبـة أبـي بكر في إشغـال العـرب عن أنفسهم، وإغرائهم بالغنائم والمنافع المادية[٢].

ومن هؤلاء المستشــرقـين: «فـلهــوزن»[٣]، «وبــرنــارد لــويس»[٤]، و«نتنج»[٥]، و«روم لاندو»[٦]، و«كارل بروكلمان»[٧]، و«كلود كاهين»[٨].

وأنقل فيما يلي بعض هذه الآراء التي تبدأ بفـرضيات وانتهت بنـظريات ومسلَّمات عندهم:

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/١٥٥؛ العقد الفريد لابن عبد عبد ربه ١/١١٧.

(٢) انظر: فلهوزن: تـاريخ الـدولة العـربية ٢٣؛ بـرنارد لـويس The Arabs in History, P 52، نتنــج: العـرب انـتصـاراتهـم ٤٧؛ روم لانـدو ـ الإسـلام والعـرب ٢٠٩؛ بروكلمان: تـاريخ الشعـوب الإسلاميـة ٩٠؛ كلود كاهين: تـاريخ العـرب والشعوب الإسلامية ١/٢٣؛ فيليب خوري: تاريخ العرب ١٧٨؛ فيليب حتي: صانعو التاريخ العربـي ٤٤.

(٣) في كتابه: تاريخ الدولة العربية.

(٤) في كتابه The Arabs in History.

(٥) في كتابه: العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام.

(٦) في كتابه: الإسلام والعرب.

(٧) في كتابه: تاريخ الشعوب الإسلامية.

(٨) في كتابه: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية.

يقول «روم لاندو»:

«**ولعل** الاندفاعات الأولى إلى ما وراء بلاد العـرب، كانت مغـازي غير منظمة، قامت بها قبائل فردية بحثاً عن الغنيمة»[1].

ويقـول «كلود كاهين» جـامعاً بين ضعف الـدولتين الكبيرتين وارتجـاليـة الفتوح:

«ولا بد أن يكون أبو بكر وعمر على علم بوجود الإمبراطوريتين الروميـة والفارسية، اللتين تقاتلتا منـذ عهد قـريب، **ولم يخطر ببـال** الخليفتين القضاء عليهما، ثم اكتشف المسلمون الضعف المذهل لهاتين الدولتين، **فحققـوا** في بضع سنين انتصاراتهم الأولى، ممـا زاد في طموحهم إلى بلوغ تخـوم العالم المعروف وقتئذ»[2].

ويقول «أنتوني نتنج» وهو يجزم برأيه:

«والحمـلات بعيدة جـداً على أن تكون نتيجـة لتدبيـر مقصود هـادىء، إذ **يبدو** أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديـدة للروح الحربيـة التي كانت تسود القبائل، والتي خطر عليها أن تشتبك في معارك أخوية»[3].

وأثبت فيمـا يلي رأي «فيـليب حـتي» الـذي يـمثـل خـلاصـة رأي المستشرقين في هذه الدعوى:

«كان على أولي الأمر بعد إخضاع الجزيرة، أن يوجهوا الجيوش الحسنة الاستعداد إلى بلدان جديدة، وقد جعل الإسلام من المؤمنين أخـوة، حتى إن

---

(١) الإسلام والعرب، ص ٢٠٩.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ١/٢٣.

(٣) العـرب ــ انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ص ٤٧، ونقـل فيليب خوري رأيـه كامـلاً. تاريخ العرب ١٧٨.

الغزو بين القبائل ـ والغزو قديم العهد في الحياة البدوية[1] ـ لم يبقَ أمراً ترضى عنه السلطة، ولكن كان من الصعب كبح جماح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولي الأمر أن يوجهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة. . . »[2].

هكذا وبكل بساطة يفرض رأيه، ثم يعود ليؤكد عدم وجود خطة للفتوحات مستدلاً بالتحفظات التي كان يبديها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وتردده في التوسع السَّريع. ثم قال بعد ذلك:

« . . . إنه لا يرى أن هذه الفتوحات جاءت نتيجة لخطة موضوعة، أو أنها نتيجة لحماسةٍ دينية [كما قلنا آنفاً ـ «هكذا»] بدأت بشكل غزوات تنفيساً للروح الحربية المتأججة في قلوب أبناء القبائل، وخلقاً[3] للمجال الحيوي خارج الجزيرة المكتظة بالسكان»[4].

وكأسلوب المستشرقين وعادتهم في الوقوع في التناقضات ـ المتعمَّدة في معظمها لخداع القارىء ـ أنقل رأي «بروكلمان» الذي يعترف بوجود خطة للنبي ﷺ نفذها أبو بكر (رضي الله عنه)، فيقول متلاعباً بالألفاظ:

«ما في مقدور أبي بكر أن ينفذ خطة النبي الأخيرة ـ تلك التي تقضي بنشر الإيمان في ما وراء حدود الوطن الأمّ، ذلك بأنه كان عليه أن يوجد فرصة من النشاط الخارجي لهذه القوى التي كانت في الماضي على استعداد دائم لأن تتفانى في منازعات لا نهاية لها»[5].

---

(١) لاحظ التركيز على الحياة البدوية، لتصور الفتوحات على أنها هجمات بدوية مخربة. مع العلم أن العرب الحضريين كانوا يمثلون الأكثرية المطلقة!.

(٢) صانعو التاريخ العربي، ص ٤٤.

(٣) هكذا في النص بمعنى الإيجاد.

(٤) صانعو التاريخ العربي، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية ١/٩٠.

وكثير من المؤرخين العرب والمسلمين أخذ بآراء المستشرقين في ارتجالية الفتوح[1].

وقد بيَّنا وجود الخطة المستنيرة الراشدة، وفساد هذه الدعوى.

وأما **دعوى إشغال العرب بالفتوحات**: فهي دعوى واهية مردودة، بالنصوص الثابتة، والوقائع الصحيحة، فقد كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد وإلى عياض بن غنم(رضي الله عنهما):

«أن استنفروا من قاتل أهل الردَّة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحد ارتدَّ حتى أرى رأيي». فلم يشهد الأيام[2] بالعراق مرتدّ[3].

كما كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن سعيد بن العاص وهو بتيماء:

«أن يدعو مَن حوله بالانضمام إليه، وألَّا يقبل إلَّا ممَّن لم يرتد»[4].

وكتب رضي الله عنه إلى جميع عماله:

«أما بعد:

فإن أحب من أدخلتم في أموركم إليَّ من لم يرتدّ، ومن كان ممَّن

---

(١) ومنهم: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ١/٢١٤؛ وعلي إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام العام؛ وجرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ٦٨؛ وسيد أمير علي: روح الإسلام ٢/٩٠.

(٢) الأيام هي المعارك التي قادها خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني في العراق. قبل أن يتوجه خالد إلى الشام.

(٣) الطبري ٣/٣٤٧؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق ١/٢٢٢.

(٤) الطبري ٣/٣٨٨.

لم يـرتد، فـأجمعوا على ذلـك، فاتخـذوا منهم صنائـع، وأذنوا لمن شـاء في الانصراف، ولا تستعينوا بمرتدّ في جهاد عدوّ»[1].

فلم يشترك من ارتد في الفتوحات الإسلامية، إلَّا بعد أن قطعت شـوطاً كبيـراً زمن عمر بن الخـطاب رضي الله عنه، حين سمـح لهم بـالاشتـراك في الجهاد، دون أن يسمح لهم بتولي قيادة، مهما بلغت كفايتهم العسكرية.



(١) الطبري ٣/٣٤١.

دعوى أنَّ الفتوحات الإسلاميَّة كانت حروبًا دينيَّة

قال بعض المستشرقين: «إن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً دينية». أي إنها كانت لإجبار الناس على الدخول في الدين الإسلامي. حيث إن الدولة الدينية (في المفهوم الغربي): كانت تخوض الحروب الدينية، لتجعل ـ ولو بالإكراه ـ كل رعيتها متدينة بدينها، بل بمذهبها الديني[1]. لأنها وحَّدت بين الدين وبين الدولة. والرعية مكون من مكونات الدولة.

فهم لم يميِّزوا بين مفهوم الجهاد الذي يعمل لإزالة الحواجز والعراقيل من وجه الدعوة، وبين اعتناق الناس للإسلام.

وألخص فيما يلي أقوالهم في هذه الدعوى:

«إن المسلمين أصحاب عقيدة، ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمى، وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام، وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة، وإنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم، والسيف باليد الأخرى»[2].

---

(١) كما فعلت فرنسا وإسبانيا والبرتغال الكاثوليكية في غرب أوروبا، باستخدامها أبشع الطرق، وأخسِّ الأساليب لفرض مذهبها ـ محاكم التحقيق، التفتيش ـ وكما فعلت روسيا القيصرية الأرثوذكسية بالمسلمين واستخدام أساليب الإبادة والتهجير. [انظر حاضر العالم الإسلامي للمؤلف] ١/٧٠، ٢/٥٢٦ ـ ٥٣٠.

(٢) انظر: «سيديو»: تاريخ العرب العام ١٣٣؛ سيد أمير علي: روح الإسلام، ص ٩٤ ـ ٩٥؛ نجيب الكيلاني: الإسلامية والقوى المضادة، ص ١٢٦؛ عبد المنعم ماجد: الدولة الأموية ١/١٦٢.

وممَّن ركَّز منهم على هذه الفكرة؛ «سيديو»، و«ميور»، و«نيبور». إذ ينقل «ميور» عن «نيبور» قوله:

«كان من الضروري لدوام الإسلام أن يستمرَّ في خطته العدوانية وأن ينفِّذ بحدِّ السيف ما يطالب به من دخول الناس في الإسلام كافة، أو بسط سيطرته العالمية على الأقل، غير أن لا مناص لأي دين من الأديان أن يجنح أتباعه للحرب في إحدى مراحل حياته، وكذلك كان الحال في الإسلام، ولكن الزعم بأن المسلمين هدفوا إلى بث الدعوة بالقوة، أو أنَّهم كانوا أكثر عدواناً من غيرهم، زعم يجب إنكاره إنكاراً تاماً»[1]. وهكذا يظهر التلاعب بالأفكار في تلك الأقوال.

والحق أن أقوال المستشرقين تضاربت في هذه الدعوى وتناقضت كعادتهم في التوزع على مختلف الآراء، فردّوا على بعضهم، وممَّن ردَّ هذه الدعوى «فون كريمر» و«غوستاف لوبون» و«فرانز روزنتال»، و«توينبي»[2].

قال «فون كريمر»:

«كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرَّم عليهم الرسول[3] قتل الرهبان، والنساء، والأطفال، والمكفوفين، كما حرم عليهم تدمير المزارع، وقطع الأشجار.

وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية، فلم ينتهكوا الحرمات، ولا أفسدوا المزارع، وبينما كان الروم يرمونهم بالسهام المسمومة،

---

(١) سيد أمير علي، ص ٩٤ ــ ٩٥.

(٢) انظر: رأي توينبي: توينبي مبتدع المنهج التاريخي الحديث ٨٧؛ عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ٣١١ ــ ٣١٢.

(٣) والرسول ﷺ لا يحرِّم من تلقاء نفسه، بل بالوحي الإلٓهي.

فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم، وكان نهب القرى وإشعال النار قد درجت عليها الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى، فلم يحاولوا من هذا شيئاً»[١].

وأما «روزنتال» فقال:

«. . . وقد نمت المدنية الإسلامية بالتوسع لا بالتعمُّق، داعية إلى العقيدة، مناقشة لتلك الحركات الفكرية الموجودة. . . وفوق كل ذلك فبتقدم الإسلام تهاوت الحواجز القديمة من اللغة والعادات، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة، وبروح المنافسة الحرة»[٢].

وأجاد «غوستاف لوبون» بالفعل في طريقة عرضه لعدم إكراه المسلمين النّاس على الإسلام، وبيَّن أن الإسلام انتشر بالدعوة وحدها[٣].

والواقع أن مصادرنا لم تبخل علينا بالنصوص الموثقة التي لا تدع مجالاً للشكِّ في أن المسلمين لم يُكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، منفذين أمر الله سبحانه وتعالى:

﴿لا إكراه في الدين، قد تبيَّن الرشد من الغيّ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾[٤].

وأما إقبال الشعوب على الإسلام فكان بسبب ما لمسوه في الإسلام نفسه، فهو النعمة العظيمة، ولما لمسوه في المسلمين من التخلُّق بأخلاق

---

(١) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص ٨٣.

(٢) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٦.

(٣) انظر: حضارة العرب، ص ١٦٢، ١٦٩ ــ ١٧٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

الإسلام والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه. ولما لمسوه في القادة والجند الذين كانوا يقومون بالدعوة بالتطبيق العملي، فتميَّزت مواقفهم بأنبل المواقف التي عرفها التاريخ العالمي. فقد كان الخلفاء والقادة يوصون جندهم بالاستعانة بالله، والتقوى، وإيثار أمر الآخرة على الدنيا، والإخلاص في الجهاد، وإرادة الله في العمل، والابتعاد عن الذنوب[1]. فكانت فيهم الرغبة الأكيدة الملحة لإنقاذ الأمم والأفراد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ونقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فكان قادة المسلمين على رأس جندهم يتلقون الصدمات الأولى في معارك الجهاد، واستشهد عدد كبير منهم مثل: المثنى بن حارثة الشيباني[2]، وأبو عبيد الثقفي الذي اندفع لنيل الشهادة مع أولاده الأربعة يوم الجسر مع سبعة من قادة المسلمين[3]، وعكرمة بن أبي جهل[4]، وضرار بن الأزور[5]، والنعمان بن مقرن المزني[6] رضي الله عنهم جميعاً.

وقد ضرب القادة أروع أمثلة الجهاد، فكانوا قدوة لجند الإسلام، مثل:

---

(١) انظر مثلاً: مخاطبة أبي بكر رضي الله عنه لجند الشام: الطبري ٣/٣٩٣؛ وكتابه لخالد بن الوليد وعياض بن غنم: الطبري ٣/٣٧٢، وكتاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص: العقد الفريد ١/١١٧.

(٢) استشهد بعد جراح أصابته في معركة الجسر، بعد معركة البويب. [الكامل في التاريخ ٢/٣٠٣].

(٣) انظر: الكامل في التاريخ ٢/٢٩٧ ــ ٣٠٣.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ١/٣٢٣.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء ١/٣١٥.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء ٢/٣٥٦.

أبو عبيدة عامر بن الجراح ـ أمين الأمة[1] ـ ، وشرحبيل بن حسنة[2]، ومعاذ بن جبل[3]، وحذيفة بن اليمان[4]، وعمرو بن العاص[5]، والزبير بن العوام[6]، والقعقاع بن عمرو التميمي[7]، وعاصم بن عمرو التميمي[8]،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ١/٥.

(٢) انظر: الزركلي ـ الأعلام ٣/١٥٩.

(٣) معاذ بن جبل رضي الله عنه من الخزرج، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وأحد الستة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ، شهد المشاهد كلها، وبعثه الرسول ﷺ بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن. ثم كان مع أبي عبيدة رضي الله عنه في فتح الشام. واستخلفه أبو عبيدة والياً على الشام بعد وفاته في طاعون عمواس وأقره عمر فمات في ذلك العام. (طاعون عمواس). ومن كلام عمر فيه: «لولا معاذ لهلك عمر» ينوِّه بعلمه [الأعلام للزركلي ٧/٢٥٨؛ الإصابة في تمييز الصحابة؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٤٤٣].

(٤) العبسي، وكان صاحب سرّ النبي ﷺ في المنافقين ولي المدائن وتوفي بها رضي الله عنه. [الأعلام للزركلي ٢/١٧١؛ الإصابة ١/٣١٧؛ سير أعلام النبلاء ٢/٣٦١].

(٥) عمرو بن العاص السهمي القرشي أسلم بعد صلح الحديبية. وقاد غزوة ذات السلاسل في عهد الرسول ﷺ، وولاه صدقات عُمان، وأحد قادة الشام المشهورين، وفاتح مصر. [انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/٥٤].

(٦) الزبير بن العوام رضي الله عنه أحد المبشرين بالجنة، شارك في فتوح مصر وإفريقيا. [انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٤١].

(٧) القعقاع بن عمرو التميمي، أحد فرسان العرب وأبطالهم في الجاهلية والإسلام، له صحبة، شهد اليرموك والقادسية. وسكن الكوفة. قال أبو بكر: «صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل». [الأعلام: للزركلي ٥/٢٠٢].

(٨) عاصم أخو القعقاع وبرز في معارك العراق إلى جانب أخيه.

ويزيد بن أبـي سفيان[١]، وعياض بن غنم[٢]، وهاشم المرقـال[٣]، وسعد بن أبـي وقـاص[٤] ، وعتبـة بن غـزوان[٥]، والأحنف بن قيس[٦]، وعبـد الله بن عامر[٧] وغيرهـم كثير رضي الله عنهـم جميعاً من القادة الـذين أنجبتهم مدرسـة الإسلام، وتربوا على مائدة القرآن الكـريم على يديْ رسـول الله ﷺ وبرعـاية التقوى والعمل الصـالح، فضـربوا أمثلة رائعـة من النبل والشجـاعة والـوقار، والتقوى. فكان أثرهم كبيراً في عـوامل النصـر في الفتوحـات الإسلاميـة وفي تبليغ الدعوة إلى سكان البلاد المفتوحة.

فكـان من السنـة التي سنَّ الـرسـول ﷺ بعـد معـركـة بـدر[٨] الكبـرى عام ٢هـ ــ أولى معارك الإسلام الحاسمة ــ أن تُقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي سـورة الأنفال[٩]، لتبقى صلة الجنـد بالله قـوية، وتقـوية الثقـة بنصر الله سبحانه.

---

(١) يزيد بن أبـي سفيان، أحد قادة فتح الشام ووالي دمشق لعمر رضي الله عنه.

(٢) عياض بن غنم فاتح الجزيرة الفراتية [سير أعلام النبلاء ٢/٣٥٤].

(٣) هـاشم المرقـال ابن أخ سعد بن أبـي وقـاص رضي الله عنهمـا [سيـر أعـلام النبـلاء ٣/٤٨٦].

(٤) سعـد بن أبـي وقـاص الصحـابـي المشهـور وفـارس الإسـلام، وقـاد المسلمين في القادسية [سير أعلام النبلاء ١/٩٢].

(٥) عتبـة بن غزوان: المـازني، صحابـي قـديم، بنى مدينـة البصرة ومقـرها. [الأعـلام للزركلي ٤/٢٠١].

(٦) الأحنف بن قيس اليمني: فـاتـح خـراسـان عـام ٢٢هـ زمن عمـر رضي الله عنـه، والمشهور بالحلم [الزركلي ــ الأعلام ١/٢٧٦ ــ ٢٧٧].

(٧) انظر عنه الذهبـي: سير أعلام النبلاء ٣/١٨.

(٨) معركة الفرقان، فرق الله بها بين الحق الباطل، فأخذ التاريخ وجهة جديدة.

(٩) الطبري: تاريخ ٣/٣٩٧.

ولما فتح خالد بن الوليد الحيرة عام ١٢هـ صلى صلاة الفتح ثماني ركعات لا يسلِّم فيهنّ[١].

ولما افتتح سعد بن أبي وقاص المدائن ـ عاصمة الفرس ـ دخل إيوان كسرى، وصلَّى صلاة الفتح ثماني ركعات بتسليمة واحدة[٢]، وقرأ: ﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾[٣].

وبعد معركة الفراض ـ أشهر معارك الأيام بالعراق ـ مع العرب المتنصرة والفرس والروم، وعودة الجند الإسلامي بعد النصر، أمر خالد بن الوليد عاصم بن عمرو التميمي أن يسير بالجيش، وأظهر أنه في الساقة، وأدَّى فريضة الحج، شاكراً أنعم الله سبحانه. وكانت غيبته عن الجيش يسيرة، فما توافى آخر الجيش إلى الحيرة، حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذي وضعه، فقدما معاً، ولم يدرِ أحد بذلك، وكذلك لم يعلم أبو بكر رحمه الله إلَّا بعد، فغضب عليه، وأمره ألَّا يعود لما فعل[٤].

ولما افتتح عبد الله بن عامر خراسان عام ٣١هـ وقُتل يزدجرد وانتهت دولة الفرس تماماً، أحرم من نيسابور وأدَّى فريضة الحج شاكراً أنعم الله[٥]. وقد لامه عثمان رضي الله عنه على ذلك لأنه كره أن يحرم من خراسان خوفاً من أن يكون قدوة لغيره فيشقَّ على غيره من المسلمين.

---

(١) الطبري: تاريخ ٣/٣٩٧.

(٢) البداية والنهاية ٧/٧٤.

(٣) سورة الدخان: الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

(٤) الطبري ٣/٣٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٦/٣٩٦.

(٥) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٧/٢٠٤؛ أسد الغابة ٣/٣٨٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/١٨؛ خليفة بن خياط، ص ١٦٦.

هذه طريقة احتفال قادة المسلمين بانتصاراتهم، فهل في تاريخ قادة العالم ما يشبه هؤلاء؟ اقتدوا برسول الله ﷺ في التواضع وشكر الله[1]. وكان هؤلاء القادة يسيرون خلف جندهم في وقت الأمن والعودة، يرفقون بهم ويحملون الكَلّ ويعينون الضعيف[2].

وكان القادة دعاة في المقام الأول، طبّقوا مبادىء الحرب الإسلامية تماماً. والحق أن المسلمين كانوا يخوضون جهاداً في سبيل الله وليس حرباً كما كانت تفعل الدول الأخرى، فكانوا يعرضون على أعدائهم أحد أمرين قبل القتال: الإسلام أو الجزية.

فمن أجاب للإسلام كان أخاً للمسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن أبى وأجاب للجزية قبل الحرب فليس عليه ذل أو صغار، ويبقى في أرضه مكرماً في ذمة المسلمين، أما من حارب حتى رضخ للجزية فهو الصغار، الذي هو الخضوع لأحكام الإسلام. قال الإمام الشافعي:

«وسمعت عدداً من أهل العلم يقولون: إن الصغار أن يجري عليهم حكم الإسلام»[3]، وهذا محتوى الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[4].

---

(١) كما حدث عندما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً.

[انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/٢٩٢، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل].

(٢) اقتداء برسول الله ﷺ.

(٣) الأم ٤/١٨٦.

(٤) سورة التوبة: آية ٢٩.

فكان أول ما يبتدىء به قادة المسلمين: الدعوة إلى الإسلام. والأمثلة على ذلك كثيرة أذكر منها:

ـ دعوة خالد بن الوليد لأهل الحيرة ـ حين خرج إليه أشرافهم ـ قال لهم: «أدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام...»[1].

ـ وفي يوم اليرموك برز خالد بن الوليد لجرجة أحد قادة الروم، فدعاه إلى الإسلام، وبيَّن له محاسنه. ومما قال له: «إن منزلة المسلمين واحدة، فيما افترض الله علينا، شريفنا، ووضيعنا، وأولنا وآخرنا...».

بل إنه ذكر له أن «أجر من يدخل في الدين مثل السابقين، وأفضل».

وكان نتيجة تلك الدعوة أن أسلم جرجة، وقاتل إلى جانب المسلمين، واستشهد في ذلك اليوم رحمه الله[2].

ـ والمفاوضات التي حصلت بين المسلمين وغيرهم في المعارك الحاسمة شاهدة على ذلك. مثل مفاوضات القادسية، واليرموك، وأجنادين، وبابليون، والإسكندرية، ونهاوند، وجلولاء.

ففي القادسية تردَّدت الرسل نبين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ورستم قائد الفرس. وطلب رستم من سعد أن يوجه إليه بعض أصحابه، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، فقصد سريره وكان يجلس عليه وهو من الذهب، وقد زُيِّن مجلسه بالفرش المنسوج بالذهب، ولبس على رأسه التاج، وأقيمت الفيلة حول المكان. وأراد المغيرة أن يجلس معه على سريره (يعلّم الفرس المساواة)، فمنعه الأساورة من ذلك. وبعد مداولات قال المغيرة:

---

(١) الطبري: تاريخ ٣/٣٤٤، ٣٤٥، ٣٧٧.

(٢) الطبري: تاريخ ٣/٣٩٩.

«إن الله بعث إلينا نبيه ﷺ، فسعدنا بإجابته واتباعه، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا، حتى يعطوا الجزية، ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده، والإيمان بنبيِّه ﷺ، فإن فعلت، وإلاَّ فالسيف بيننا وبينكم».

ولما قال «رستم»: «والشمس والقمر، لا يرتفع الضحى غداً، حتى نقتلكم أجمعين».

قال المغيرة: «لا حول ولا قوة إلاَّ بالله»، وانصرف عنه[1].

وكان رستم قد قابل عدداً من رسل المسلمين الذين بيَّنوا له أهدافهم من الجهاد، فأعجب بالمسلمين، وبإجابتهم السديدة، حتى قال لأصحابه:

«انظروا فإن هؤلاء لا يخلو أمرهم من أن يكون صدقاً أو كذباً، فإن كانوا كاذبين، فإن قوماً يحفظون أسرارهم هذا الحفظ، ولا يختلفون في شيء، وقد تعاهدوا على كتمان سرِّهم هذا التعاهد بحيث لا يظهر أحد منهم سرَّهم، لقوم في غاية الشدة والقوة. وإن كانوا صادقين فهؤلاء لا يقف حذاءهم أحد»[2].

وفي مفاوضات حصن بابليون بمصر عام ٢٠هـ، استقبل عمرو بن العاص رضي الله عنه رسل المقوقس في محاولات التوصل إلى الصلح، فأبقاهم عمرو عنده يومين ليشاهدوا حياة المسلمين الإسلامية ــ وهي طريقة ناجحة في الدعوة[3] ــ ثم قال لهم:

«ليس بيننا وبينكم إلاَّ إحدى خصال ثلاث: الدخول في الإسلام،

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧٥.

(٢) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص ٧٧.

(٣) اقتداء برسول الله ﷺ الذي كان يستقبل الوفود في المسجد، ليشاهدوا حياة الإسلام والمسلمين وليكون ذلك أرق لقلوبهم. [تاريخ الدعوة: للمؤلف ٢١٧، ٢٢٢].

فتكونون إخواننا، ولكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإما القتال، حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين»[1].

ولما عاد وفد المقوقس إليه قالوا:

«رأينا قوماً، الموت أحبّ إليهم من الحياة، والتواضع أحبّ إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة، ولا نهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف كبيرهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلّف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم»[2].

ــ وفي أثناء انسياح المسلمين في فارس، وتقدمهم، سار أبو موسى الأشعري رضى الله عنه على رأس المسلمين إلى «تستر»[3]، فدعا القائد الفارسي «سياه» الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من أصبهان، وأشار عليهم أن يدخلوا الإسلام. فوجّهوا «شيرويه» في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى يأخذ شروطاً على أن يدخلوا الإسلام.

فتقدم شيرويه على أبي موسى، فقال:

«إنا قد رغبنا في دينكم، فنسلم على أن نقاتل معكم العجم، ولا نقاتل معكم العرب، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه، وننزل حيث شئنا، ونكون فيما شئنا منكم، وتلحقونا بأشراف العطاء، ويعقد لنا الأمير الذي هو فوقك بذلك».

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٥٩ ــ ٦١.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦١.

(٣) وتُسْتَر: أعظم مدن خوزستان، وبها قبر البراء بن مالك الأنصاري، وكان يُعمل بها ثياب وعمائم فائقة [انظر: ياقوت ــ معجم البلدان ٢/ ٢٩ ــ ٣١].

فقال أبو موسى:
«بل لكم ما لنا، وعليكم ما علينا».
قالوا: «لا نرضى».
فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك.
فكتب إليه عمر: «أعطهم ما سألوه».
فأسلموا، وشهدوا معه حصار تستر.
فكتب أبو موسى لهم.
وكتب إليه عمر: «أن ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء، وأكثر شيء أخذه أحد من العرب». ففرض لمائة منهم في ألفين ألفين، ولستة منهم في ألفين وخمسمائه.[1].

وهذا يبين حرص قادة المسلمين ودعاتهم على إسلام الناس، فقد استجابوا لشروطهم طمعاً في هدايتهم.

وعامل قادة المسلمين وولاتهم أهل البلاد المفتوحة بالعدل الذي يمليه الإسلام ويطلبه، واستجابوا لوصايا الخلفاء الذين ضربوا أروع الأمثلة في القدوة.

فأبو بكر رضي الله عنه يسيِّر جند المسلمين ويوصيهم على منوال وصية الرسول ﷺ لجيش مؤته[2]. ومنها في وصيته ليزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه:
«.. فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإنّ أولى الناس بالله أشدُّهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدُّهم تقرُّباً إليه

---

(١) الطبري: تاريخ ٣/٩٠ ــ ٩١.
(٢) انظر الواقدي ــ المغازي ٢/٧٥٧ وتسمى وصية الأمراء. وانظر وصية أبي بكر، ابن عساكر، ٢٢٥ ــ ٢٢٦.

بعمله، وقد وليتك عمل خالد[1]، فإياك وعبية الجاهلية[2]، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز. فإن كثير الكلام يُنسي بعضُه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم، حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من مثلك من محادثتهم. وكن أنت المتولّي لكلامهم، ولا تجعل سرَّك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار وأكثر حرسك، وبددهم عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه، فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرها لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحقّ، ولا تلجنّ فيها[3]، ولا تسرع إليها، ولا تخذْ لها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتفِ بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، وأصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول، فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر.

---

(١) ويقصد به خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه.

(٢) العبية: الحظ والنصيب. والأصح عيبة بمعنى وصمة الجاهلية [لسان العرب ١/٦٣٤].

(٣) من اللَّجاج.

وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له».

ويعلق ابن الأثير على هذه الوصية بقوله:

«وهذه أحسن الوصايا، وأكثرها نفعاً لولاة الأمر»[1].

فحمل القادة دعوة الإسلام، وكانوا أحرص الناس على تبليغها دون أن يكرهوا أحداً عليها، فمن طريف ما يُروى في سياق فتح الإسكندرية أن عمرو بن العاص رضي الله عنه خيَّر الأسرى، فمن دخل الإسلام كان للمسلمين أخاً، وكان المسلمون يكبّرون كلّما أسلم أسير مثل تكبيرة الفتح وأشدّ، وإذا اختار النصرانية وحازوه إليهم، ووضعت عليه الجزية جزع المسلمون جزعاً شديداً، حتى كأنه رجل خرج منهم إليهم.

وحدَّث زياد بن جزء الزبيدي وكان في جند عمرو بن العاص، فقال:

«فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم. وقد أتى فيمن أتينا به بأبي مريم عبدالله بن عبد الرحمن، فوقفناه، فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية، وأبوه وإخوته في النصارى، فاختار الإسلام، فحزناه إلينا، ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا، حتى شققوا عليه ثيابه، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى»[2] أي أنه أصبح عريفاً لبني زبيد!!.

فهذا هو الحرص الشديد على هداية الناس، دون إكراه أو عنت، واقرأ ما قاله «ساويرس بن المقفع» النصراني عن الفتوحات الإسلامية، وقد شاهد الفرق بين حكم المسلمين وحكم الرومان، ورأى غبطة غير المسلمين في ظل المسلمين. يقول:

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٢٧٧.

(٢) الطبري: تاريخ ٤/١٠٦؛ البداية والنهاية ٧/١٠٩.

«وكانت أعمال الأرثوذكسية الصالحة تنمو، وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلّ رباطهم، وأطلقوا على ألبان أمهاتهم»[1].

واقرأ رسالة البطريق النسطوري «يشوع ياف» إلى «سمعان» رئيس أساقفة فارس، وهو يصف تسارع أهل الكتاب للإسلام ويأسف على ذلك والحسد يأكل قلبه:

«أين أبناؤك أيها الأب الذي ثكل أبناءه ـ أين أهل مرو العظماء الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفاً ولا ناراً ولا تعذيباً. . . واحسرتاه، واحسرتاه، على هذه الآلاف المؤلَّفة التي تحمل المسيحية والتي لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب، ويريق دماءه في سبيل الدين الحق[2] ـ أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء. . . وإن العرب الذين منحهم الله السلطان يشاهدون ما أنتم عليه، وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس يعطفون على ديننا، ويكرمون قسيسينا، وقديس الرب، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار، فلماذا هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب؟ ولماذا حدث ذلك أيضاً في وقت لم يرغمهم فيه العرب، كما يصرِّح بذلك أهل مرو أنفسهم على ترك دينهم، بل تعهدوا أن يبقوا عليه آمناً مصوناً، إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم[3]. . .»[4]

فأين إكراه المسلمين لغيرهم على الإسلام؟.

إن القدوة والمعاملة الحسنة، وتطبيق أحكام الإسلام جعلت الناس

---

(١) أثر أهل الكتاب ـ للمؤلف، ص ٢٣٠.

(٢) يقصد بها النصرانية النسطورية.

(٣) يقصد الجزية.

(٤) أثر أهل الكتاب ـ للمؤلف، ص ٤٣٥.

يسارعون لاعتناق الإسلام، وكانت أوامر الخلفاء تتوالى على القادة والولاة بإحسان معاملة أهل البلاد. فقد أمر أبو بكر خالداً أن يتألف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم[1]، فأقر خالد الفلاحين في العراق، وأصبحت أرضهم لهم بعد أن كانوا أقناناً عند الدهاقين[2]. وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بفلاحي بهرسير في بلاد فارس بعد أن كان قد أسرهم، وكتب إلى عمر بن الخطاب بذلك. فأطلقهم سعد بعد أن دعاهم إلى الإسلام فأبوا إلّا الجزية[3].

وفي فتح خراسان بقيادة الأحنف عام ٢٢ هـ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر الطبري:

«وأقبل أهل فارس على الأحنف، فصالحوه، وعاقدوه، ودفعوا إليه تلك الخزائن، والأموال[4]، وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم، على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة، فكانوا كأنما هم في ملكهم، إلا أن المسلمين أوفى لهم، وأعدل عليهم، فاغتبطو وغبطوا»[5].

لقد اتخذ الإسلام موقفاً متميزاً رائعاً، فرعية الدولة الإسلامية تشمل المسلم وغير المسلم، وكل له حقوق وعليه واجبات، وسمح بتمايز العقائد في إطار هذه الحقوق والواجبات. وهذا بخلاف الحكومة الدينية عند الغربيين.



---

(١) الطبري ٣/٣٤٣.

(٢) الطبري ٣/٣٥٠ ــ ٣٥٢. والدهاقين: كبار ملاكي الأرض الفرس.

(٣) الطبري ٤/١٦٨؛ البداية والنهاية ٧/٧٠، وبَهُرَ سير من نواحي بغداد قرب المدائن غربي دجلة [ياقوت ــ معجم البلدان ١/٥١٥].

(٤) أموال الأكاسرة.

(٥) الطبري ٤/١٧١.

دعوى التفسير القومي والوطني

ذكر كثير من المستشرقين أن من عوامل الفتح الإسلامي وسهولته «وجود العرب في الشام والعراق ومصر، الذين اعتبروا العرب من بني جنسهم، يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين من الروم والفرس»[1].

واعتبروا هذه الفتوحات: «من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب، استرد بها الشرق الأدنى مجده السامي الغابر»[2].

وقد أخذ بهذه الآراء عدد من المؤرخين العرب والمسلمين المعاصرين[3].

وهذا قلب متعمد (على الأغلب) للحقائق، حيث جعلوا النتائج أسباباً، والأسباب نتائج.

فالمصادر الصحيحة تجمع على أن العرب المتنصرة في الشام والعراق وفي مصر هم الذين وقفوا أولاً في وجه الدعوة، وفي وجه الفاتحين المسلمين، وجابهوهم وتلقوا الصدمات الأولى، كما أنهم خاضوا المعارك إلى جانب الفرس والروم.

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/٩٣؛ كلود كاهين، ص ٢٤؛ برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص ٥٢؛ ول ديورانت، ص ١٣/٧٢؛ موريس لومبارد: الجغرافيا التاريخية، ص ١٦.

(٢) فيليب حتي: تاريخ العرب، ص ١٧٥.

(٣) منهم: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ١/٢١٥؛ أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي ١/٤١٥.

ففي معــارك العـراق الأولى ــ معــارك الأيـام ــ التي كــانت من أشـد المعــارك التي خـاضتهــا الجيـوش الإســلاميـة، واجــه العـرب المتنصـرة المجاهدين، وكانوا يقـولون: «العـرب أدرى بقتال العـرب»[1]. ولا أدل على شدَّة تلك المعارك من أن أهل الأيام من أهـل الكوفـة كانـوا يوعـدون معاويـة قائلين:

«ما شاء معاوية، نحن أصحاب ذات السلاسل، ويسمّون مـا بينها وبين الفراض، ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل»[2].

فبعد أن قضي على حركة الردة في شبه الجزيرة العربية هرب عـدد من بكر بن وائل والتجأ إلى العرب المتنصرة في العراق، فاشتركوا مع الفرس ضد المسلمين في حرب الأيام.

وكان أول قتال خاضته القوات الإسلامية التي قادها خالد بن الوليـد في العـراق مع قـرى العرب المتنصـرة في أرض السواد وهي بـانقيا، وبـادوسما، وألَّيس[3].

وفي وقعة كاظمة[4] وهي وقعة ذات السـلاسل شـارك العرب المتنصـرة الفـرس بقيادة هـرمز ضـد المسلمين. وقد تعبّـى هـرمـز وأصحـابـه واقتـرنـوا بالسلاسل، فنصحهم العرب المتنصـرة بألّا يفعلوا ذلـك . فأجـابهم الفرس: «أما أنتم فحدثونا أنكم تريدون الهرب»[5].

---

(١) هذا ما قالوه يوم معركة عين التّمر الطبري ٣/٣٧٦.

(٢) الطبري ٣/٣٦٦، ٤٠٧؛ الكامل في التاريخ ٢/٤٠٠. والفِراض موضع بين البصرة واليمامة. وهنا تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات اجتمعت عليـه الروم والعـرب والفرس، فـأوقع بهم خـالد رضي الله عنـه وقعة عـظيمة [يـاقـوت ــ معجم البلدان ١/٢٤٣ ــ ٢٤٤].

(٣) الطبري ٣/٣٤٣؛ الكامل ٢/٣٨٤.

(٤) موقعها الحالي في الكويت. (٥) الطبري ٣/٣٤٨.

وفي وقعة المذار المشهورة شارك العـرب المتنصرة الفـرس القتال ضـد المسلمين[1].

وفي وقعة الولجة انضمَّ عرب الضاحية من النصارى، والعرب المتنصرة من بكر بن وائل ومن بـطون بني عجل وتيم الـلات وضبيعة إلى قـائد الفـرس «الأندرزغر»[2].

وفي ألَّيس كـاتب العـرب النصـارى الأعـاجم، وكـان على رأسهم عبـد الأسود العجلي في بني عجـل وتيم اللات وضبيعـة، يسانـدهم جابـر بن بجير النصراني في عرب الضاحية من أجل الحيرة ونصاراهم. وانضموا جميعاً إلى قائد الفرس «بهمن جاذويه».

ولما دارت الدائرة على الفرس والعرب المتنصرة وأسر خالد عدداً كبيراً منهم ضرب أعناق العرب المتنصرة برّاً بيمين حلفها قبل الوقعـة لشدة مـا كان من غيظه من نصارى العرب لتحالفهم مع الفرس[3].

وكذلك انضم العـرب المتنصرة إلى الفرس في يوم الأنبار[4]. وفي عين التمـر هزم خـالد جمعـاً للفرس بقيـادة «مهران بن بهـرام» وجمعاً عـظيمـاً من العرب المتنصرة من النَّمـر وتغلب وإياد بقيـادة عقة بن أبـي عقـة وعلى ميمنته بجير بن فلان، وعلى ميسرته الهذيل بن عمـران[5]. وقد أظهـروا شدة العداء للإسلام والمسلمين حتى طلب عقـة من الفرس أن يـدعوهم لقتـال المسلمين فقال:

---

(١) الطبري ٣/٣٥٢؛ البداية والنهاية ٦/٣٨٧.

(٢) الطبري ٣/٣٥٣؛ الكامل ٢/٣٨٧.

(٣) الطبري ٣/٣٥٦.

(٤) الطبري ٣/٣٧٤.

(٥) الطبري ٣/٣٧٦؛ الكامل في التاريخ ٢/٣٩٤.

«إن العرب أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم». فتركهم مهران[1].

وتصدَّت نصارى العرب من كلب وبهراء والضجاعم وتنوخ أثناء ذلك لعياض بن غنم فأنجده خالد بعد عين التمر فكانت وقعة دومة[2].

ولما علم العرب بغيبة خالد عن الحيرة إلى دومة كاتبت نصارى الجزيرة الفراتية الأعاجم والروم غضباً لعقة، وعرضوا عليهم التضامن معاً في قتال المسلمين يتزعمهم الهذيل بن عمران، كما خرج ربيعة بن بجير التغلبي الذي كان بالثني والبشر غضباً لعقة[3]. وانضموا إلى الفرس بقيادة «زرمهر»، «وروزبة» فكانت وقائع شديدة في المصيخ وحصيد والخنافس[4]، والرضاب[5].

وأقسم خالد رضي الله عنه ليبغتن تغلب في عقر دارها لأنها تولَّت كبر التحالف مع الروم والفرس. فتوجه إلى الفِراض عند تخوم الشام والعراق والجزيرة، فكانت وقعة هائلة شارك فيها العرب النصارى (من تغلب وإياد والنَّمر) الفرس والروم وانتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً[6].

وفي الشام كان الصدام مع العرب المتنصِّرة من بهراء وكلب وسليم وتنوخ ولخم وجذام وغسان. ومعهم الروم بقيادة باهان[7]. وهزموا المسلمين

---

(١) الطبري ٣/٣٧٦؛ الكامل في التاريخ ٢/٣٩٤.

(٢) الطبري ٣/٣٧٧.

(٣) المصدر نفسه ٣/٣٧٧. والثَّنْيُ: قرب البصرة [ياقوت ـ معجم البلدان ٢/٨٦]. والبِشْرُ: اسم جبل ممتد من عُرْض الفرات إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية من منازل بني تغلب بن وائل [ياقوت ١/٤٢٦].

(٤) المصدر نفسه ٣/٣٨٠.

(٥) الطبري ٣/٣٨٢؛ الكامل ٢/٣٩٩.

(٦) الطبري ٣/٣٨٤؛ الكامل ٢/٣٩٩.

(٧) أو ما هان الأرمني.

في معركة مرج الصفر الذين كانوا بقيادة خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه[1].

واصطدم خالد بن الوليد مع غسان وعليهم الحارث بن الأيهم عند قدومه من العراق إلى الشام[2].

وفي أجنادين شارك بعض العرب المتنصِّرة الروم[3].

ولما حاصر المسلمون حمص اتَّصل عرب الجزيرة الفراتية النصارى بهرقل وحرَّضوه على استخلاصها وأمدّوه[4].

ولما دخل أبو عبيدة دمشق فشتا بها، فلما أصافت الروم سار «هرقل» في الروم حتى نزل أنطاكيا ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبَلي وعاملة وتلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير عليهم جبلة بن الأيهم. وانضم بعض المستعربة من نصارى لخم وجذام للمسلمين، ولكنهم غدروا بهم لما رأوا جدَّ القتال وفرُّوا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين[5].

وفي معركة اليرموك الحاسمة كان جبلة بن الأيهم بمن معه من مستعربة الشام على مقدمة باهان أو ماهان الأرمني قائد الروم[6]. واستمر العرب المتنصرة يشاركون الروم معاركهم ضد المسلمين في آسيا الصغرى.

---

(١) الطبري ٣/٣٨٩.

(٢) المصدر نفسه ٣/٤١٠، ٤١٧.

(٣) المصدر نفسه ٣/٤١٨.

(٤) المصدر نفسه ٤/٥٠.

(٥) المصدر نفسه ٣/٥٧١.

(٦) الطبري ٣/٣٩٥؛ فتوح البلدان، للبلاذري، ص ١٤٠.

وفي مصر: حاول النصارى العرب في الشام أن ينضموا إلى الـروم في صـراعهم مع المـدِّ الإسلامي في مصـر. إذ رحـل جمـاعـة من غسـان ولخم وجـذام وعاملة وضبـة من بني عم جبلة بن الأيهم. وتوجّهوا إلى مصـر بعـد أن كاتبوا المقوقس ليأذن لهم، ولم يجبهم، وأجابهم القائد الروماني[1].

وذكر المقريزي[2]:

إنـه كان على تنيس رجـل يقال لـه أبو ثـور من العرب المتنصِّـرة، فلما فتحت دمياط سار إليهـا المسلمون، فبـرز إليهم نحو عشـرين ألفاً من العـرب المتنصِّـرة والقبط والروم. فكـانت بينهم حروب آلت إلى وقـوع أبـي ثـور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه.

ومن هذا العرض السريع[3] تتضح تفاهة دعوى المستشرقين في العامل القومي، وبدأ العـرب يعتنقون الإسـلام كسائـر الشعوب الأخـرى بعد أن رأوا محاسنه، وأخـلاق حملته ودعـاته لا عن عصبيـة، **فإسـلام العرب كـان نتيجة للفتوحات، وليس سبباً في الفتوحات.**



---

(١) العيني: عقد الجمان ١٠ ق ٢/٣٦٣.

(٢) الخطط ١/١٧٧.

(٣) انظر التفاصيل ـ أثر أهل الكتاب ـ للمؤلف، ص ١٩٢ ـ ٢١٣.

دعوى العامل الاجتماعي للفتوحات الإسلامية

ذكر بعض المستشرقين أن من عوامل الفتوحات الإسلامية: «التغيرات الاجتماعية» التي مرَّ بها العرب قبل ظهور الإسلام، وأن تعاليم الرسول ﷺ أسهمت فيها، فكانت الفتوحات حركة تحرير للعرب[1]. فربطوا التغيرات الاجتماعية بالوطنية والقومية[2]، وقالوا:

«فوضعت تعاليم الرسول ﷺ أساس نظام، أو بناء جديد للمجتمع، وخلقت أداة قوية للتوسع العدواني، أُوجِّهت عمداً إلى تحقيق تلك الغاية، أو لم توجَّه»[3]، و«استثيرت الحماسة الوطنية، وتحركوا بدافع وطني أكثر منه ديني»[4]. و«كان الجهاد لإخضاع الأعاجم إلى سلطان العرب قبل كل شيء»[5]، و«مدّ الأمة العربية»[6]، و«استطاع الشرق بذلك أن يسترجع ماضيه»[7]، و«كانت هجرة العرب شبيهة بالهجرات السامية القديمة التي

(١) نقل ذلك عنهم عبد المنعم ماجد ١٦٦/١.

(٢) جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص ٧ ــ ٨؛ التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، ص ٧ ــ ٨.

(٣) دراسات ــ نفسه ــ ص ٥٠.

(٤) فان فلوتن: السيادة العربية، ص ١٢ ــ ١٣.

(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١٠٧/١؛ ولا عجب لذلك، فبروكلمان ألماني، والألمان تغلب عليهم النزعة العنصرية.

(٦) برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص ٤٩، ٥٥.

(٧) فيليب حتي: تاريخ العرب، ص ١٧٥.

خرجت من شبه الجزيرة العربية في السابق. مثل هجرات الآشوريين والكنعانيين والأموريين، والآراميين.. إنها آخر هجرة سامية عظيمة»[1].

هكذا ويستمرون في وضع الفرضيات، واستخلاص النتائج منها، متجاهلين نصوص المصادر الأصلية الصحيحة، ووصل بهم الأمر أن قالوا بتحامل عجيب يحمل في طياته الحقد:

و «إن الدافع للجهاد هو شره الولاة والقواد»[2]، و «إن الرؤساء والقادة في الجنود الفاتحين كانوا أولاً وقبل كل شيء محاربين دنيويين، وإن إيمانهم كان على نحوٍ ما شكلياً وله طابع انتهازي»[3]، و «أن محمداً لم يبدع حركة جديدة بمقدار ما أثار القوى الكامنة لنهضة قومية عربية، وانتشار كان قائماً حين ظهر...»[4].

والواقع أن رسالة الإسلام قلبت المجتمع الذي كان قائماً في شبه الجزيرة رأساً على عقب، وأقامت مجتمعاً جديداً ـ هو المجتمع الإسلامي ـ على أساس من العقيدة، وما ينبثق عنها من نظام شامل للحياة، مقاييسه الحلال والحرام وفق ما جاء به الكتاب والسنة الشريفة، فسادت في هذا المجتمع روح المساواة والعدل والرحمة، وتمايز أفراده بالتقوى وبالعمل الصالح، فتآلفت القلوب، وأصبح الجميع بنعمة الله إخواناً[5]، فلا عصبية،

---

(١) على رأي أرنولد وكيتاني وبيكر. انظر فيليب خوري حتي، ص ١٧٧.

(٢) فان فلوتن: السيادة العربية، ص ١٨، ٢٠.

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب، ص ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤١؛ دومنيك سورديل: الإسلام في القرون الوسطى، ص ٦.

(٥) قال تعالى مبيِّناً هذا التغير، وهو تغيُّر ينطبق على كل من اعتنق عقيدة الإسلام صادقاً: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم﴾، [الأنفال: ٦٣].

=

ولا خصومة، ولا طبقية. وقد أعاد الإسلام للنفس البشرية كرامتها، فـانطلقت الطاقات الخيِّرة تعمل. وشمل التغير الاجتماعي أفراد المجتمع جميعاً الرجال والنسـاء والأطفال. فتغيَّـرت مفاهيم النسـاء المسلمات بعـد أن أعاد الإسـلام للمـرأة كرامتهـا، فأصبحن ربـات البيوت ومصـانع الـرجال ومـوضع التقـديـر والاحتـرام، فجاهـدن، وقاتلن، وقـدمن حليهن وأبناءهن وأزواجهن راضيـات مؤمنات بعقيدة الإسلام.

وذكـر المؤرخون بـطولات المسلمات وتضحيـاتهن[1]، واسترعى ذلـك انتباه «إدوار جيبون»، فقال:

«إن الشجاعة التي أعربت عنها المرأة المسلمة في موقعة اليرموك، وفي غضـون حصار دمشق لأعـظم مما يتنـاوله التقـدير»[2]. وغـاب عن بالـه الأمر الأهم من ذلك: محـافـظة المـرأة المسلمـة على حصون الإسـلام الـداخليـة ـ البيوت ـ.

هذا هو التغيُّر بل الانقلاب الاجتماعي الـذي شهده العـرب بالإسـلام، وليس التغيـر القومي والـوطني، لقد تكـونت أمـة إسـلاميـة، رابـطة أفـرادهـا

= وقال سبحانه وتعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعـداءً فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾. [آل عمران: الآية ١٠٢].
وهذا يمثل أعظم مظهر في التغيُّر الاجتماعي.

(١) مثـل أم عمارة رضي الله عنهـا يوم أحـد، وأم حرام رضي الله عنهـا في قبرص حيث استشهـدت فيها [فتـوح البلدان، ص ١٥٨]، وأم حكيم بنت الحارث في يـوم مـرج الصفر [فتوح البلدان، ص ١٢٥]، والخنساء ـ تماضر بنت عمرو الشريد ـ الشـاعرة التي غيَّرها الإسـلام تمامـاً من بكائهـا على أخيها صخـر في الجاهليـة إلى التضحية بأولادها الأربعة في القادسيـة، وخولـة بنت الأزور، وهند بنت عتبـة [فتوح البلدان، ص ١٤١؛ ابن أعثم ١/٢٠٢ ـ ٢٠٣].

(٢) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص ٤٦٢.

العقيدة، تخضع لنظام حكم الإسلام، حرص قادتها على التمسك بمبادئه وآدابه. كما حرصوا على رفع رايته ووهبوا أنفسهم في سبيل الله، أعرضوا عن الدنيا فأقبلت إليهم، واشتهروا بالنزاهة، وكانت وسائلهم من جنس غاياتهم النبيلة، فابتعدوا عن الانتهازية والشره والطمع، وضربوا أروع أمثلة في التاريخ.

ولو أردنا أن نعطي أمثلة من تاريخنا لإثبات ذلك لاحتجنا إلى مجلدات، وأكتفي بعرض أمثلة معبِّرة قليلة[١].

فمن هؤلاء القادة (التي ذكرت بعض أسمائهم من قبل) عمرو بن العاص رضي الله عنه، الذي تعرض لطعن المستشرقين، واتهامات بعض المؤرخين المسلمين[٢] الذين سايروا آراء المستشرقين، هذا القائد أمّره رسول الله ﷺ، وقال فيه وفي أخيه: «ابنا العاص مؤمنان، هشام وعمرو»[٣].

وقال فيه ﷺ:

«أسلم الناس وآمن عمرو»[٤].

وكتب إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو على عُمان:

«إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولّاكه مرة، وسمّاه لك أخرى، فبعثك إلى عُمان، إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، فقد وليته، ثم وليته، وقد أحببت ــ أبا عبد الله ــ أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك، ومعادك منه، إلاَّ أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك».

---

(١) سبقت أمثلة في هذا البحث.

(٢) انظر مثلاً: إبراهيم بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص ٧٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٤/١٤١؛ مسند أحمد ٢/٢٢٧؛ سير أعلام النبلاء ٣/٥٦.

(٤) فضائل الصحابة ٢/٩١٢؛ أسد الغابة ٤/١١٧؛ سير أعلام النبلاء ٤/٦٤.

فكتب إليه عمرو رضي الله عنه:

«إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها، وأفضلها، فارمِ به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي»[1].

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى الوليد بن عقبة[2] بمثل ذلك، وكان على النصف من صدقات قضاعة فأجابه بإيثار الجهاد[3].

ومن أبرز القادة: خالد بن الوليد ــ سيف الله المسلول ــ الذي لم يسلم من الطعن فيه، ورسول الله ﷺ يقول فيه:

«لا تؤذوا خالداً، فإنه سيف من سيوف الله صبَّه على الكفار»[4].

ولما مات رضي الله عنه لم يدع إلَّا فرسه وسلاحه وغلامه. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظنناه به»[5].

وأين مثل القائد أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه أمين الأمة. وكل قادة المسلمين لا يُجهل أمرهم! فهم من الجيل القرآني الفريد، رضي الله عنهم جميعاً كانوا في أول جيوشهم عند الصدمات يتلقونها، وفي آخرهم عند الرجوع والأمن. وأقرأ ما كتبه أبو بكر رضي الله عنه لكل واحد منهم:

---

(١) الطبري ٣/٣٨٩.

(٢) انظر: أثر أهل الكتاب للمؤلف حول ولاية الوليد للكوفة في زمن عثمان رضي الله عنه ٢٥٣ ــ ٢٥٤.

(٣) الطبري ٣/٣٩٠.

(٤) أخرجه الحاكم ١١/٢٩٨؛ بلفظ آخر، ابن سعد ٧ ق ٢/١٢٠؛والطبراني، قال: ــ القائل هو الهيثمي عن رجال الطبراني ــ رجاله ثقات. الذهبي: سير اعلام النبلاء ١/٣٧٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٧ ق ١/١٢١؛ سير أعلام النبلاء ١/٣٨٣.

«اتق الله في السرِّ والعلانية، فإن من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويـرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق الله يكفِّـر عنه سيئاته، ويعـظم له أجـراً، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله، إنـك في سبيل من سبـل الله، لا يسعك فيـه الإذهان (الإلهـاء)، والتفـريط، والغفلة عمـا فيـه قـوام دينكم، وعصمـة أمركم، فلا تني ولا تفتر»[1].

وكانت صلة الفاتحين ـ من الجند والقادة ـ بالله قوية، تظهر في مختلف مواقف الجهاد وطاعتهم لأوامر الخليفة طاعة عبادة.

فعنـدما تـوجه خـالد بن الـوليد من العـراق إلى الشام، يـريد أن يقـطع البيداء المخيفة قال لجنده:

«لا يهـولنكم، فـإنـا عبـاد الله، وفي سبيـل الله ، وعلى طـاعـة خليفـة رسول الله ﷺ»[2].

وضرب عكرمة بن أبـي جهل رضي الله عنه (الذي طالما عادى الإسلام وأهله) أعظم أمثلة الفداء مع أترابه إلى أن حظي بالشهادة. ويُقال:

«إنه لا يُعرف له ذنب بعدما أسلم»[3].

وأبو سفيان ـ صخـر بن حرب ـ الـذي قاد قـريشاً الـوثنية في مـواجهة الإسلام فترة طويلة، وطالمـا عادى الإسـلام وأهله ـ يُلقي نفسه في الجهـاد. ويجاهد في اليرموك تحت راية ابنه يزيد، ويُنادي المسلمين بأعلى صوته:

«يا نصر الله اقترب. . الثبات، الثبات يا معشر المسلمين. . . اللهم إن

---

(١) الطبري ٣/ ٣٩٠؛ البداية والنهاية ٧/ ١٠ ـ ١١، ١٦.

(٢) الطبري ٣/ ٣٨٤، ٣٨٥؛ البداية والنهاية ٦/ ٣٩٦.

(٣) البداية والنهاية ٧/ ٣٨.

هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك...»، وفقد عينه في ذلك اليوم[1].

وكان القادة لا يطمعون في القيادة إلّا لشرف الجهاد. وتميّز الجند والقادة بالمحافظة على شعائر الإسلام بدقة وفي كل وقت وآن.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنعمان بن مقرن رضي الله عنه: أما إني سأستعملك.

فقال النعمان: أما جابياً فلا، ولكن غازياً.

قال: فأنت غازٍ.

فأرسله.

فقال لرجاله يوم معركة نهاوند ـ فتح الفتوح عام ١٩هـ ـ: «إني هازّ لوائي ثلاث هزات، فأما أول هزة **فليتوضأ الرجل** بعدها، وأما الهزة الثانية فلينظر بعدها إلى سيفه، وليتهيأ وليصلح من شأنه، وأما الثالثة إن شاء الله فاحملوا، ولا يلوين أحد على أحد».

وكان رضي الله عنه أول شهيد في تلك المعركة. فأتاه معقل بن يسار وبه رمق فغسل وجهه من إداوة ماء كانت معه. فقال: من أنت؟. قال: معقل.

قال: ما صنع المسلمون؟

فقال له: أبشر بفتح الله ونصره.

قال: الحمد لله، اكتبوا إلى عمر[2].

وأعجب ما في تاريخ قادة المسلمين وجندهم أن أدناهم كان يجير كأعلاهم:

---

(١) الطبري ٣/٣٩٧؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق ١/٢٦٢.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٠١.

ففي وقعة النمارق عام ١٣هـ، أسر مطر بن فضة التيمي «جابان» قائد الفرس، فخدعه «جابان»، وتفلَّت منه بشيء، فخلَّى عنه. فأخذه المسلمون، فأتوا به قائدهم أبا عبيد الثقفي رضي الله عنه، وأخبروه أنه الملك. وأشاروا عليه بقتله. فقال:

«إني أخاف الله أن أقتله، وقد آمنه رجل مسلم، والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد، ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلَّهم». فقالوا: إنه الملك.

قال: «وإن كان، لا أعذر». فتركه[1]!

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قبل القادسية يوصيه بالاهتمام بهذا الأمر، فقال:

«إني قد ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو، وهزمتموهم، فاطرحوا الشكّ، وآثروا التقية عليه، فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان، أو قرفه (رماه واتهمه) بإشارة أو بلسان، فكان لا يدري الأعجمي ما كلَّمه به، وكان عندهم أماناً، فأجروا ذلك له مجرى الأمان . . .»[2].

وفي وقعة «جنديسابور»[3] عام ١٧هـ، حاصرها المسلمون وقاموا على حربها، فما زالوا مقيمين عليها، حتى رُمي إليهم بالأمان، من عسكر المسلمين.

---

(١) الطبري ٣/٤٤٩.

(٢) الطبري ٣/٤٩٢.

(٣) جُنْدَيْسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور فنسبت إليه، وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده. [انظر: ياقوت ٢/١٧٠ ـ ١٧١]، استضاف فيها كسرى أنو شروان فلاسفة أثينا، وبنى لهم مارستاناً (مدينة طبية) فبلغت في الطب شهرة عظيمة وأمَّها الأساتذة من كل صوب، وأخذوا ينقلون التراث اليوناني إلى اللغة الفارسية القديمة (الفهلويّة) واستمرت في الازدهار طيلة القرن الأول الهجري من الحكم الإسلامي. [انظر: أثر أهل الكتاب ٢٩٨].

فلم يفجأ المسلمين إلّا وأبوابها تفتح، ثم خرج السرح، وخرجت الأسواق، وانبث أهلها.

فأرسل المسلمون: أن ما لكم؟

فقالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا.

فقالوا: ما فعلنا.

فقالوا: ما كذبنا.

فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد يدعى «مكنفاً» كان أصله منها هو الذي كتب لهم.

فقالوا: إنما هو عبد.

فقالوا: إنّا لا نعرف حركم من عبدكم، قد جاء أمان، فنحن عليه قد قبلناه، ولم نبدّل، فإن شئتم فاعذروا.

فأمسكوا عنهم، وكتبوا إلى عمر رضي الله عنه بذلك. فكتب إليهم:

«إن الله عظَّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، ما دمتم في شكّ أجيزوهم، وفوا لهم».

فوفوا لهم، وانصرفوا عنهم[1].

وكان الخلفاء والقادة حريصين على الفرد المسلم، فقبل معركة نهاوند عام ١٩هـ، أو ٢١هـ كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النعمان بن مقرن رضي الله عنه، ومما قاله:

---

(١) الطبري ٤/٩٤.

«فإن رجلاً من المسلمين أحبّ إليَّ من مائة ألف دينار. . .»[1].

كما كتب إلى معاوية رضي الله عنه بعد مغامرته في البحر، وقال:

«وتالله لمسلم أحبّ إليَّ مما حوت الروم»[2].

وكان احتفال الخلفاء والقادة بالنصر: السجود لله سبحانه وشكره، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا ورده خبر بالنصر يخرّ لله ساجداً ويحمد الله[3]. فلا عجب أنْ ضرب جند الإسلام أروع الأمثلة في الالتزام، والطاعة والتضحية والإيثار، حتى وصفهم أعداؤهم:

«بأنهم رهبان الليل، فرسان النهار، لو حدَّثك جليسك حديثاً ما فهمته لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر، يصومون النهار، ويقومون الليل، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصحون بينهم، يعفّون عن المغانم، ولا يستحلّونها إلاَّ محلَّها»[4].

وكانت هذه الصفات الإسلامية في الجند والقادة قد استهوت أهل البلاد المفتوحة، فكانت من أهم أسباب تسارع الناس لاعتناق الإسلام، إذ لمسوا المعاملة الحسنة التي يفرضها الإسلام على القادة والجند فتخلّصوا من الاضطهادات الدينية التي سادت في عهد دولتي الفرس والروم[5]، استجابة لأوامر رسول الله ﷺ الذي أوصى بأهل الذمة في الوقت الذي كان يهاجم عقائد اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من

---

(١) المصدر نفسه ٤/ ١١٥.

(٢) المصدر نفسه ٤/ ٢٥٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٣٠١.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١/ ٢٣٠، ٢٣٦.

(٥) انظر أمثلة لهذا الاضطهاد: بتلر: فتح العرب لمصر، الفصل الثالث عشر، ص ١٤٩، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦؛ وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٣.

دون الله يحرّمون ويحلّون[1]. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ويأمره بالترفق في جيش المسلمين، ولا ينسى أثناء ذلك أن يوصي بأهل الذمة قائلاً:

«ترفَّق بالمسلمين في سيرهم، ولا تجشمهم عسيراً يتعبهم، ولا تقصِّر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم، والسفر لم ينقص من قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة، يحيون بها أنفسهم، ويربّون أسلحتهم، وأمتعتهم، ونحِّ منازلهم عن **قرى أهل الصلح والذمة،** فلا يدخلها من أصحابك إلاَّ من تثق به، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيء، فإن لهم **حرمة وذمة** ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم، فتولوهم خيراً، **ولا تنتصر على أهل الحرب** بظلم أهل الصلح...»[2].

ألا ما أعظم هذه الوصايا، إنها مدرسة الإسلام!. فالذمي يأمن في ظل الإسلام، بل وصل الإسلام إلى حدّ أنه أمر المسلم بأن يعمل على توفير الأمن للمشرك الخائف وحمايته وإيصاله إلى مأمنه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بذلك في قوله:

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره، حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه﴾[3].

وأوجب نصرة المعاهدين ولم يوجب نصرة المسلم على قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق. قال تعالى:

---

(١) قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم﴾، [التوبة: ٣١].

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/١١٧ ــ ١١٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦.

﴿والـذيـن آمنـوا، ولـم يهـاجـروا، مـا لكم من ولايتهم من شيء حتى يهـاجروا، وإن استنصـروكم في الدين، فعليكم النصـر، إلاَّ على قـوم بينكم وبينهم ميثاق﴾[1].

فـأين العامـل القومي والـوطني في الفتوحـات الإسلاميـة؟ وأين التغيُّـر الاجتماعي إلاَّ على أساس الإسلام وبالإسلام وعقيدته؟ فاستمع المجاهـدون إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿قـل إن كان آبـاؤكم وأبناؤكم وإخـوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادهـا ومساكن تـرضونهـا، أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهـاد في سبيله فتربصـوا حتى يأتي الله بـأمره، والله لا يهـدي القوم الفاسقين﴾[2].



(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٤.

دعوى ضعف الدولتين الفارسية والرومانية

تحدَّث المستشرقون عن ضعف الدولتين الفارسية والرومانية، وبالغوا في الإلحاح في ذلك، وجعلوه من أهم الأسباب التي أدَّت للفتوحات الإسلامية، وانتصارات المسلمين[1]، في محاولة منهم لتجريد المسلمين من كل فضل في الانتصار، فقدم الانتصار لهم على مائدة من فضة أو ذهب، ونالوه دون مشقة أو تعب، «فقد طمع العرب في الدولتين بسبب ضعفهما»، وقد رأينا رأي «كلود كاهين» في ضعف الدولتين وكيف استنتج من ذلك ارتجالية الفتوحات الإسلامية[2].

وأما «سيديو» فقد أنهى حديثه عن ضعف الدولتين بقوله:

«والروم والفرس إذ أضعفهم احترابهم عند الانتصار والانكسار على السواء، **بدوا غنيمة سهلة غنية** لمن يعرف كيف يأخذها»[3]!!.

---

(1) انظر: غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١٦٥؛ برنارد لويس: العرب في التاريخ، ص ٤٩؛ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٩٠؛ فيليب حتي: تاريخ العرب العام، ص ١١٦، ١٣٨؛ ول ديورانت: قصة الحضارة ١٢/٣٥٤ ـ ٣٥٥ و١٣/٧٢.

(2) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ١/٢٣.

(3) تاريخ العرب العام، ص ١١٦، ١٣٨.

وأخـذ بآراء المستشـرقين كالعـادة عدد من المؤرخين العـرب وبعضهم لم يشر إلى أصلها الاستشراقي[1].

والواقع أن الدولتين كانتا تنحدران بالفعل نحـو الضعف، وعانتـا ــ عدا الحروب المتواصلة بينهما ــ من ظروف داخلية عصيبة. فعانت دولة الفرس من حركات انشقـاق في العقيدة الـزرداشتية، إلى استبـداد الملوك والأرستقراطيـة الفارسية (المرازبة) ورجال الدين (الموابذة).

وعانت الدولة البيزنطية صراعات ضـارية على الحكم، وثـورات محلية واضطهادات دينية بين الملكانية والأرثوذكسية وغيرهما[2].

ولكن ليس هناك نسبة بالمقاييس المـادية بين الفـاتحين المسلمين وبين قـوى دولة واحـدة من الدولتين بله الـدولتين!. لا في العدد ولا في العـدة ولا في التدريب والخبرة في خوض المعارك، فمـا من معركـة خاضهـا المسلمون مع الدولتين إلاَّ وواجهـوا قوات أكثـر عدداً، وأكثـر عدة. والـدول التي تحشد لمعركة واحدة مائة ألف وأكثر من ذلك، لا يمكن أن تكون ضعيفة.

والحق أن المسلمين في فتـوحاتهم لم يحسبـوا حسـابـاً للعـدد والعدة، والإصرار على إبراز ضعف الدولتين تجاهـل متعمد لأسبـاب الفتح الإسـلامي وعـوامل انتصـارات المسلمين الـذين تمسَّكـوا بعقيـدتهم والتـزمـوا بـدينهم، واستيقنت أنفسهم قول الله عز وجل:

---

(١) مثل: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسـلام ١/٢١٤ ــ ٢١٥؛ وعبد المنعم مـاجد: الدولة العربية ١٦٠ ــ ١٦٢؛ وجرجي زيدان: التمدن الإسلامي ٦٦ وما بعد.

(٢) انظر: عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ١/١٩١ ــ ١٩٩.

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[1].

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿الذين قال لهم الناس، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾[3].

خاطب أبو بكر رضي الله عنه جند الشام فقال:

«... فإنكم أعوان، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أوتوا فمن تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب»[4].

وكتب رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم:

«واستعينوا بالله واتقوه، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم، ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما، واحترسوا ما حذركم الله بترك المعاصي، ومعاجلة التوبة...»[5].

وفي معركة اليرموك يقول خالد بن الوليد أثناء احتدامها يخاطب جنده المسلمين:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٤) الطبري ٣/٣٩٣.

(٥) المصدر نفسه ٣/٣٧٢.

«إن هـذا يوم من أيـام الله، لا ينبغي فيه الفخـر، ولا البغي، أخلصـوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده»[1].

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنـه إلى قائـده سعد بن أبـي وقـاص ـ فارس الإسلام ـ رضي الله عنه وإلى من معه من الأجناد:

«أما بعد فـإني آمرك ومن معـك من الأجناد بتقـوى الله على كل حـال، فـإن تقوى الله أفضـل العدة على العـدو، وأقوى المكيـدة في الحـرب، فـإن ذنـوب الجيش أخـوف عليهم من عـدوهم وإنمـا يُنصـر المسلمـون بمعصيـة عـدوهم لله، ولولا ذلـك لم تكن لنا بهم قـوة، لأن عددنـا ليس كعددهم، ولا عدَّتنا كعدَّتهم، فإذا استوينا في المعصيـة، كان لهم الفضـل علينا في القـوة، وإلَّا نُنْصَـرَ عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقـوتنا. فـاعلموا أن عليكم في سيـركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيـل الله، ولا تقولـوا: إن عدونـا شرّ منّـا فلـن يُسلَّط علينـا، وإن أسأنا. فرب قوم سُلِّط عليهم شرّ منهم. . .

واسـألوا الله العـون على أنفسكم، كما تسـألونـه النصر على عـدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم. . .»[2].



(١) المصدر نفسه ٣/٣٩٥.

(٢) العقد الفريد ١/١١٧.

دعوى الدوافع الاقتصادية للفتوحات الإسلامية

وهذه الدعوى هي أهم ما ركّز عليه المستشرقون، وأجمعوا عليه فيها، ولا عجب في ذلك، فهم ينطلقون من مقاييسهم المادية البحتة. فاعتبروا الفتح الإسلامي من أجل الحصول على الغنائم، ومن أجل استبدال العرب بصحاريهم الصخرية الجرداء ــ التي لم تنتج لهم إلاَّ حياة تقوم على البؤس ــ تلك الأقطار ذات الترف والنعيم[1].

وللاستدلال على آرائهم وتأكيدها عمدوا إلى بعض النصوص من المصادر الإسلامية، تخيّروها من بين النصوص الكثيرة التي تؤكد عكس آرائهم تلك. والنصوص التي تصيَّدوها نصوص قيلت في عبارات حماسية أدلى بها بعض قادة المسلمين، أو نصوص استفزازية كانت ردّاً على عدو قائد أو حاكم، أو هي نصوص اقتطعت من نصوص أطول منها، وبترت عن

---

(١) انظر: جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص ٧ وما بعدها؛ و «آرنولد» وهو ينقل رأي أستاذه «كيتاني» ــ الدعوة إلى الإسلام ٦٤، و «كيتاني».

Caetani: Studi di Sotria, Orientale p. 831 – 850.

روم لاندو: الإسلام والعرب، ص ٥٩؛ نتنج: العرب وانتصاراتهم، ص ٤٧؛ كلود كاهين ١/٢٤؛ جوبينو في الفصل السابع والأربعين من كتابه: انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها؛ فلهوزن: الدولة العربية، ص ٢٣؛ فيليب حتي: صانعو التاريخ العربي، ص ٤٤؛ وتاريخ العرب ١/٣١؛ إدوارد عطية: العرب ص ٢٥؛ جرجي زيدان: التمدن الإسلامي، ص ٦٦؛ فيليب خوري، تاريخ العرب ص ٢٥؛ ول ديورانت: قصة الحضارة ١٢/٣٠٥؛ ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ٩٤.

أصولها. وإذا كان جدب الأرض سبباً في هجرة قبائل الحجاز ونجد، فما هي أسباب هجرة عرب اليمن السعيد؟!.

وعلى كلٍ فالنصوص التي اعتمد عليها المستشرقون ومن أخذ عنهم آراءهم، هي نصوص محدودة كرروها. وسأذكرها في هذا البحث لأبيِّن بجلاء لا يقبل الجدل دافع الفتوحات الحقيقي، وهو الجهاد في سبيل الله وتبليغ الدعوة.

● **النص الأول:**

«كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى أهل مكة والطائف واليمن، وجميع العرب ونجد والحجاز لما أخذ في إعداد الجيوش الإسلامية وتسييرها إلى الشام: **يستنفرهم للجهاد**، ويرغبهم فيه، وفي غنائم الروم، فسارع إليه الناس بين محتسب، وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب»(١).

والنصّ ليس بحاجة إلى بيان، فهو يفصح عن استنفار المسلمين للجهاد والترغيب فيه، وهو الهدف الأول، ثم الترغيب في الغنائم نتيجة الاستنفار، فالغنائم هي إحدى الحسنيين ـ النصر أو الشهادة ـ وكلتاهما غنيمة رابحة، والغنائم التي يجنيها المسلم في طاعة الله مباحة ووسام شرف له.

● **النص الثاني:**

«خطب خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الولجة فقال:

وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله، والدعاء إلى الله عز وجل، ولو لم يكن إلّا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه»(٢).

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٥.

(٢) الطبري ٣/٣٥٤؛ البداية والنهاية ٦/٣٨٩.

والنص واضح المعنى فهو خطاب حماسي مثير، ركَّز فيه خالد رضي الله عنه على الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله. واستنفر فيه أصحاب الدنيا ممَّن تفتر العقيدة عنده، ثم إنَّ النص منسوب لخالد رضي الله عنه، لأن قارىء النص قد يرى أن ثمة مجاعة قد أحاطت بشبه الجزيرة العربية فدفعت سكانها إلى ركوب المغامرة طلباً للخلاص لولا ما جاء أولاً من الدعوة إلى الجهاد، والدعوة إلى الله. ولماذا ينتزع نص واحد من بين نصوص كثيرة لتأكيد وجهة نظر مسبقة؟!

● **النص الثالث:**

في محاورة الوفد الإسلامي لرستم قائد الفرس في القادسية قال «رستم»:

«قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم عليه إلَّا ضيق المعاش، وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تشبعون به، ونصرفكم ببعض ما تحبون»(1).

وهذا النص قول لعدو المسلمين، والأمانة العلمية تقتضي أن يُكملوا النص، وعدم بتره، بأن يذكروا ما أجاب عليه الوفد الإسلامي، ولكن المستشرقين لا يهمهم من أجل تأكيد وجهة نظرهم أن يتصيَّدوا ما يؤيدها بأي سبيل، فاقتطعوا ما أرادوه متعمدين. ونحن نذكر ما أجاب به ربعي بن عامر أحد أعضاء الوفد الإسلامي لـ «رستم» في هذا الحوار موضحاً رسالة المسلمين ودوافع جهادهم:

«... اللَّه جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبله قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه دوننا، ومن

---

(1) الطبري ٤/١٠٨؛ البداية والنهاية ٧/٤٣ ـ ٤٦؛ الكامل في التاريخ ٢/٣٢٠.

أبـى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر. .»[1].

وهنـاك غير هـذا الردّ، ردود استفـزازية كثيـرة، أذكـر منهـا:

ففي جملة محاورات «رستم» في مفاوضات القادسيـة قال للمغيـرة أحد أعضاء الوفد الإسلامي:

«قـد أمرت لكم بكسـوة، ولأميـركم بـألف دينـار، وكسـوة ومـركـوب، وتنصرفون عنا».

فقال المغيرة:

«أبعد أن أوهنّا ملككم وضعفنـا عزمكم، ولنـا مدة في بـلادكم، ونأخـذ الجـزيـة منكم عن يـد وأنتم صـاغـرون، وستصيـرون لنـا عبيـداً على رغمكم؟!»[2].

ولما بعث «ماهان» إلى خالد يوم اليرموك، كان فيما عرضه عليه:

«قـد علمنا أن الـذي أخرجكم من بـلادكم غلاء السعـر، وضيق الأمـر بكم، وإني قد رأيت أن أعطي كل رجل عشرة دنانيـر وراحلة، تحمل حملهـا من الطعام. .».

فأجابه خالد رضي الله عنه:

«مـا أخرجنـا من بلادنـا الجوع، ولا ضيق الأمـر، ولكنا معشـر العـرب نشرب الدمـاء، فحُدِّثنـا أن لا دماً أحلى من دم الـروم، فأقبلنـا نهريق دمـاءكم ونشربها»[3].

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) البداية والنهاية ٧/٤٤ ــ ٤٥.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، مخطوط ١/٢٥٧.

وأعتقد جازماً لو كان المستشرقون عثروا على هذا النص الاستفزازي لأقاموا الدنيا وأقعدوها، ولأشاعوا أن العرب كانوا يشربون الدماء[1]، وأي جواب أبلغ من جواب خالد رضي الله عنه في ذلك المقام.

لقد كان الروم والفرس يخاطبون العرب المسلمين باستعلاء، كما كانوا يخاطبون العرب في الجاهلية، ولم يستوعبوا بعد ويدركوا مقدار التحوُّل الذي طرأ عليهم بالإسلام، وأن أمة جديدة تكوَّنت هي أمة الإسلام العزيزة: ﴿ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين﴾[2]؛ فكان لا بدَّ من الرد على الاستفزازات باستفزازات أشدّ في بعض الحالات بعد استفراغ الجهد في وسائل الإقناع وهكذا كان.

● **النص الرابع:**

ويظهر فيه تهافت المستشرقين وتسقّط النصوص الضعيفة والبحث عنها بأي سبيل وليّ عنقها لتناسب آراءهم المسبقة، فقد تجاوزوا النصوص الثابتة الصحيحة، واستشهدوا ببيت من الشعر لا يُعرف قائله بالضبط، ليؤكدوا زعمهم في دوافع الفتوحات المادية. وهذا هو البيت:

فلا جنة الفردوس أراك تبتغي ولكن دعاك الخبز أحسب والتمر

مع أن البيت في حقيقة معناه تحقير لمن جعل همه المغانم وليس الجهاد في سبيل الله الذي يفضي إلى الجنة.

ومن عرض النصوص التي استشهد بها المستشرقون ومن أخذ عنهم يتضح تفاهة الاستدلال بها على دوافع الفتوحات الإسلامية.

---

(١) والدعايات الصهيونية في أميركا عن العرب والمسلمين معروفة في العصور المعاصرة. والجمهور الغربي مستعد لقبول أي دعاية عن العرب والمسلمين للأسف!. انظر: ادوارد سعيد ــ الاستشراق.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

لقد حمل الفاتحون العقيدة، وعملوا على تبليغها للناس بالدعوة والجهاد. وكانت الغنيمة نتيجة للفتح ــ وليست سبباً فيه ــ حلالاً تعتبر وسام شرف للمجاهد. فالتنافس عليها كان تنافساً في الجهاد، صحيح كان هناك كثير من الأفراد ساروا وراء المغانم المادية وطمعاً فيها، ومثل هؤلاء لم يخلُ منهم جيش حتى على عهد رسول الله ﷺ في حنين وتبوك وغيرهما، ولكن ذلك بالطبع لا يمثِّل وجهة نظر المسلمين في دوافع الفتوحات، ولا يمثل القيادة الفكرية التي كان يتبنَّاها الخلفاء والقادة ونفَّذها الجند، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام.

إن الذي يمثل ذلك بالفعل المواقف العملية لقادة المسلمين ولجند الإسلام:

فعمير بن الحمام رضي الله عنه يلقي التمرات من يده، ويسرع لنيل الشهادة يوم بدر[١]، وعمرو بن الجموح رضي الله عنه يريد أن يطأ بعرجته الجنة[٢]، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه يلقي العظم من يده ويندفع لنيل الشهادة دون تردُّد[٣]، وشباب الإسلام يتطاولون فيقفون على رؤوس أصابعهم ليؤذن لهم بالجهاد[٤]، وقادة مؤتة يندفعون لنيل الشهادة واحداً بعد الآخر إلى أن وقعت الراية بيد خالد بن الوليد رضي الله عنه[٥]، والنساء والصبيان من المسلمين يحثون التراب في وجوه جيش مؤتة ويصفونهم بالفرار[٦].

---

(١) انظر ابن هشام: السيرة ٢/٦٢٧.
(٢) المصدر نفسه ٣/٩٠.
(٣) المصدر نفسه ٤/٣٧٩.
(٤) المصدر نفسه ٣/٦٦.
(٥) المصدر نفسه ٤/٣٧٣ ــ ٣٨٣.
(٦) المصدر نفسه ٤/٣٨٣.

وينـدفع أبـو عبيد الثقفي رضي الله عنـه لنيل الشهـادة يـوم الجسـر مـع أولاده الأربعـة وسبعة من قـادة المسلمين الكبار[1]، وعكـرمـة بن أبـي جهـل ينـدفع في قلب الـروم وينال الشهـادة[2]، والنعمـان بن مقـرن رضي الله عنـه يسقط أول شهداء نهاوند ــ فتح الفتوح ــ .

ذلك هو الجيل القرآني الذي قام بالفتوحات الإسلاميـة الأولى، والذي يقـدم حياتـه في الجهاد لا يمكن أن يـطمع في دنيـا يصيبها! . استنفـرهم الله للجهاد ولتبليغ الدعوة وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً . قال تعالى :

﴿انفروا خفافـاً وثقالاً، وجـاهدوا بـأمـوالكم وأنفسكم في سبيـل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[3].

فاستجابـوا لذلـك وقدمـوا أموالهم وأنفسهم، وسـارعوا إلى تلبيـة داعي الجهاد.

عن صفوان بن عمرو، قال:

«كنت واليـاً على حمص فلقيت شيخـاً قـد سقـط حـاجبـاه، من أهـل دمشق على راحلته يريد الغزو، قلت: يا عم، أنت معذور عند الله.

فرفع حاجبيه وقال: يـا ابن أخي، استنفـرنا الله خفـافاً وثقـالاً، ألا من أحبه الله ابتلاه»[4].

وعن الإمام الزهري، قال:

«خـرج سعيد بن المسيب إلى الغـزو، وقد ذهبت إحـدى عينيه، فقيـل لـه: إنك عـليـل، صـاحب عـذر، فقال: استنفـر الله الخفيف والثقيـل، فـإن

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/٣١.
(٢) المصدر نفسه ٧/٣٨.
(٣) سورة التوبة: الآية ٤١.
(٤) انظر: تفسير الرازي ١٦/٧٠.

عجزت عن الجهاد كثّرت السواد، وحفظت المتاع»[1].

وكان ابن أم مكتوم رضي الله عنه أعمى، وأنزل فيه قوله سبحانه وتعالى: ﴿غير أولي الضرر﴾[2]. فكان بعد يغزو ويقول:

«ادفعوا إليَّ اللواء، فإني أعمى لا أستطيع أن أفرّ، وأقيموني بين الصفين».

وقد حضر القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع. ويقال إنه استشهد رضي الله عنه يوم القادسية[3].

فكان توجه الفاتحين لإرضاء الله سبحانه وتعالى، وابتعدوا عن المصالح الدنيوية.

كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى أهل اليمن يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه ويعلِّمهم فريضته:

«... فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والجهاد فريضة مفروضة، والثواب عند الله عظيم، وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وقد حسنت نيتهم، وعظمت حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه، فإنكم إلى إحدى الحُسنَيَيْن، إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة، فإن الله تبارك وتعالى لم يرضَ من عباده بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته، حتى يدينوا

---

(١) انظر: تفسير الرازي ١٦/٧٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٥؛ والآية: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/٥٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٣٦٤ ـ ٣٦٥.

بـدين الحقِّ، ويقرّوا لحكم الكتـاب. حفظ الله لكم دينكم، وهدى قلوبكم، وزكى أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين»[1].

فحافظ الفاتحون المسلمون على إسلامهم وعقيدتهم، وقـد مرَّت معنـا أمثلة كثيـرة خلال هـذا البحث تبين ذلك. فـآثروا الشهـادة على الغنيمة، ولم يأخذوا الغنيمة إلاَّ بحقها كوسام شرف للجهاد.

«لمـا افتتحت المـدائن ــ طيسفـون ــ عـاصمـة الفـرس العـظيمـة عام ١٦هـ، غنم المسلمون غنائم كثيرة، ولم يأخذ أحد من الجيش لنفسه مما وقع في يده، وإنَّما أدّاها بتمامها إلى سعد بن أبـي وقاص رضي الله عنه.

جاء رجل بحُقّ نفيس من جواهر، فلما أتى سعد بن أبـي وقاص، قالوا له: هل أخذت منه شيئاً؟.

قال: لولا الله ما أتيتكم به.

وسألوه من هو؟

فقال: لا أخبركم فتحمدوني، ولكني أحمد الله، وأرضى بثوابه.

ولما رأى سعد أمانة رجاله، قال:

«والله إن الجيش لذو أمانـة، ولولا مـا سبق لأهل بـدر لقلت: إنها على فعيل أهل بدر»[2].

ولمـا رأى عمر بن الخـطاب رضي الله عنه، مقـدار مـا وصـل إليـه من أموال إلى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية. قال:

«إن جيشاً أدَّى هذا لذو أمانة».

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١/٢١٩ وبالمعنى نفسه ٢١٧، ٢١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٣٦٠.

فأجابه علي رضي الله عنه:

«عففت فعفّت الرعية، ولو رتعت لرتعوا»[1].

ولما انسحب المسلمون من مدينة حمص في خطة عسكرية لمواجهة القوات الرومية البيزنطية في اليرموك، أعادوا الجزية لأهلها، مخالفين كلّ ما يتوقعه الناس من جند ينسحب عن مدينة. ووقف أهلها مشدوهين لذلك، فبيَّن لهم المسلمون الأمر على جليَّته، وقالوا:

«قد شغلنا عن نصرتكم، والدفع عنكم، فأنتم على أمركم».

فقالوا: «لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا مما كنّا فيه من الظلم والغشم» ومنعوا الروم من دخول المدينة.

وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا:

«إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنّا عليه، وإلاّ فإنّا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد»[2].

والجزية في أبسط مفاهيمها ضريبة على الذمي من رعايا الدولة الإسلامية مقابل حمايته، ومقابل ضريبة الجهاد المفروضة على المسلم (والمؤمن يقوم بها تعبداً وتقرباً إلى الله).

قال خالد بن الوليد عندما صالح أهل الحيرة:

«إني عاهدت على الجزية والمنعة... فإن منعناكم فلنا الجزية وإلاّ فلا»[3].

وتسقط إذا عجز عن حماية أهل الذمة كما حصل في واقعة حمص

---

(١) المصدر نفسه ٢/٣٦٠.

(٢) ابن عساكر ١/٢٥٦؛ فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٤٣.

(٣) ابن عساكر ١/٢٣٠، ٢٣٦؛ الطبري: تاريخ ٤/١٦.

(كما سبق)، وتسقط أيضاً إذا قام الذمي بواجب الدفاع عن دار الإسلام كالذي صنعه عتبة بن فرقد مع أهل أذربيجان فكان:

«عليهم أن يؤدوا الجزية قدر طاقتهم، إلاَّ من حشر منهم في سنة، فيوضع عنه جزاء تلك السنة»[1].

كما يُعفى منها من لا يستطيع القتال كالمرأة والصبي والشيخ الكبير، والرهبان، ومن يؤدي خدمة للمسلمين[2].

وأموال الجزية والخراج كانت تنفق محلياً (في معظمها) في كل ولاية لأغراض المشروعات العامة. وقيمتها سهلة يسيرة على الفرد[3].

وبعد هذا العرض أين يقع دور الدوافع المادية في الفتوحات الإسلامية؟

إن مما يلفت النظر ويُذكر بفخر لحملة الإسلام الفاتحين الأُول من العرب، قلة أموالهم في العراق وخراسان والشام ومصر بالقياس إلى ما احتجنه الأعاجم من الأموال، لأنَّهم كانوا لا يمدّون يداً إلى أموال أهل البلاد المفتوحة، ولم ينصرفوا إلى شؤون الكسب والمعاش انصرافاً تاماً، فقد جاهدوا في سبيل الله، ونصحوا، ونصروا بأنفسهم وأموالهم، وهم في هذا حالة فريدة في التاريخ العالمي[4].

ولما ذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتسلم بيت المقدس وظهرت أمامه كبَّر وكبَّر المسلمون معه، فسمّي ذلك الموضع جبل المكبّر،

---

(١) انظر: الطبري ٥/٢٥٠.
(٢) انظر: ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ١/٩٩.
(٣) انظر حول الجزية: تاريخ الدعوة، للمؤلف، ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨.
(٤) انظر: الموالي: موقف الدولة الأموية منهم، للمؤلف، ص ٩٥.

وخاطب رضي الله عنه أمة الإسلام على مدى الأجيال، فقال:

«يا أهل الإسلام، إن الله تعالى قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد، ومكَّن لكم في الأرض، فلا يكن جزاؤه منكم إلاَّ الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر بالنعم، وقلَّما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلاَّ سلبوا عزهم، وسلِّط عليهم عدوهم»[1].

وبعد فتح خراسان عام ٢٢هـ على يد الأحنف بن قيس أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكتاب الفتح من الأحنف فقرىء على الناس، ثم خطب فقال:

«إن الله تبارك وتعالى ذكر رسول الله ﷺ وما بعثه به من الهدى، ووعد على أتباعه عاجل الثواب وآجله، خير الدنيا والآخرة، فقال:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون﴾[2].

فالحمد لله الذي أنجز وعده ونصر جنده.

ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية، وفرَّق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضرّ بمسلم. ألا إن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم، وأموالهم وأبناءهم، لينظر كيف تعملون!

ألا وإن المصرين[3] من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد، وقد وغلوا في البلاد، والله بالغ أمره، ومنجز وعده، وتبع آخر ذلك

(١) عارف العارف: المرجع المفصّل في تاريخ القدس، ص ١٠١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٣.

(٣) يقصد بهما البصرة والكوفة في العراق.

أوله، فقوموا على رِجْل[1] يوفّ لكم بعهده، ويؤتكم وعده، ولا تُبدِّلوا، ولا تغيِّروا، فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلَّا من قبلكم»[2].

وكأنه رضي الله عنه يحذِّر المسلمين من تغيير ما بأنفسهم، تأكيداً لقوله تعالى:

﴿إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾[3].

وقوله جلَّ وعلا:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأنَّ الله سميع عليم﴾[4].



---

(١) أي شمّروا عن ساعد الجدّ، ولا تناموا [ابن منظور: لسان العرب ١/٢٦٧].

(٢) الطبري ٤/١٧٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ١١.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٥٣.

خاتــمَة

من خـلال عرضنـا لهذا البحث تتهـاوى دعاوى المستشـرقين في دوافع الفتوحات الإسلامية دعوى تلو الأخرى. وتتضح دواعي الفتوحـات الإسلاميـة العظيمة السريعة، حيث لا مجال فيها للارتجال أو الصدف.

فكان الدافع الأول والأخير للمسلمين في القيام بهذه الفتـوحات تحقيق فرضية الجهاد، وما يترتب عليها من حمل الدعوة وتبليغها، وتطبيق أحكام الله على البشرية، وإنقاذها من جاهليتها، وإخراجها منها إلى نور الإسلام وعدله، تنفيذاً لأوامر الله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه ورضاه.

قال تعالى:

﴿الذين إن مكناهم في الأرض، أقاموا الصـلاة، وآتوا الـزكاة، وأمـروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[1].

وهـذا هو سـرُّ بقاء وخلود أثـر هذه الفتـوحات العـظيمة. ﴿فـأما الـزبد فيذهب جُفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[2].

والحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام على سيِّـد الأنبيـاء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

طيبة الطيبة

الأربعاء ٣٠ رمضان ١٤١٠هـ

الموافق ٢٥/٤/١٩٩٠م.

الدكتور جميل عبدالله محمد المصري

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٧.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ كتب الحديث الشريف.

٣ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٤ ـ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة.

٥ ـ أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي، ط ٨، ١٩٧٨م.

٦ ـ إدوارد سعيد: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨١م.

٧ ـ إدوارد عطية: العرب، ترجمة محمد قنديل، الشركة العربية، القاهرة، ١٩٦١م.

٨ ـ أرنولد: سير توماس، الدعوة إلى الإسلام. ترجمة حسن إبراهيم حسن، القاهرة ١٩٧٠م.

٩ ـ إسماعيل عمايرة: المستشرقون ومناهجهم اللغوية. دار الملاحي، إربد، الأردن، ط ١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

١٠ ـ ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي. ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط ٢، ١٩٨١م.

١١ ـ الأندلسي: ابن عبد ربه، العقد الفريد. تحقيق مفيد محمد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.

١٢ ـ أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ. دار الكتاب المصري، ط ١، ١٩٨٠م.

١٣ ـ بتلر: فتح العرب لمصر. تعريب فريد أبو حديد، القاهرة ط ٢، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.

١٤ ـ برنارد لويس: تاريخ العرب.

The Arabs in History, London 1966, Revised edition.

١٥ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة أمين فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط ٥، بيروت ١٩٦٨م.

١٦ ـ بفانموللر: جوستاف، سيرة الرسول في تصورات الغربيين. ترجمة محمود حمدي زقزوق، مكتبة ابن تيمية، البحرين، ط ١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٧ ـ البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٨ ـ ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. دار الكتاب العربي، مصر، ط ٤، ١٩٦٩م.

١٩ ـ ابن تيمية، منهاج السنّة والاعتدال، المطبعة الأميرية ١٣٢٢هـ.

٢٠ ـ الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط ٤، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠م.

٢١ ـ جب، هاملتون: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى. المركز العربي للكتاب، دمشق، مهمل السنة والمترجم.

٢٢ ـ جب، هاملتون: دراسات في حضارة الإسلام. ترجمة إحسان عباس وزملائه. دار العلم للملايين، ط ٢، بيروت ١٩٧٩م.

٢٣ ـ جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي. مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

٢٤ ـ جميل عبد الله المصري: أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري. مكتبة الدار بالمدينة، ط ١، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

٢٥ ــ جميل المصري: تاريخ الدعوة الإسلامية. مكتبة الدار بالمدينة، ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢٦ ــ جميل المصري: الموالي، موقف الدولة الأموية منهم. دار أم القرى، عمان، الأردن، ط ١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٢٧ ــ جميل المصري: حاضر العالم الإسلامي. دار أم القرى، عمان، الأردن، ط ٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٢٨ ــ جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام. ترجمة محمد يوسف موسى ورفاقه، دار الكتب الحديثة بمصر، مكتبة المثنى ببغداد، ط ٢، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.

٢٩ ــ حتي، فيليب: صانعو التاريخ العربي. ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، ط ١، ١٩٦٩م.

٣٠ ــ حتي: فيليب، تاريخ العرب. مطوَّل، دار الكشاف ط ٣، ١٩٦١م.

٣١ ــ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام. مكتبة النهضة المصرية، ط ٧، ١٩٦٤م.

٣٢ ــ خليفة بن خياط: تحقيق أكرم العمري، ط ٢، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٣٣ ــ دروزة: محمد عزة. تاريخ الجنس العربي. المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ط ١، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.

٣٤ ــ ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٧٥م.

٣٥ ــ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، ط ٢، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م.

٣٦ ــ روزنتال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة ط ٢، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٣٧ ــ روم لاندو: الإسلام والعرب. تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٦٢م.

٣٨ ــ الـزركلي، خير الـدين: الأعـلام. دار العلم للمـلايين، بيـروت ط ٦، ١٩٨٤م.

٣٩ ــ ابن سعـد، محمـد: الـطبقـات الكبـرى. تحقيق إدوارد سخـاو ويـوسف هوروفيتش، مؤسسة دار التحرير، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٤٠ ــ سـورديل، دومنيـك: الإسلام في القـرون الوسـطى. ترجمـة علي المقلد، بيروت ط ١، ١٩٨٣م.

٤١ ــ سيد أمير علي: روح الإسلام. ترجمة نبيه أمين محمود الشرقاوي، المطبعة النموذجية، القاهرة ١٩٦١م.

٤٢ ــ سيـديو، ل. م: تـاريخ العـرب العام. تعـريب عادل زعيتـر، عيسى البابي الحلبي ط ٢، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

٤٣ ــ الشافعي، الإمام محمد بن إدريس: الأم. الجزء الرابع.

٤٤ ــ الشـرقاوي، عفت: في فلسفـة الحضارة الإسـلامية. دار النهضـة العربيـة، بيروت ط ٣، ١٩٨١م.

٤٥ ــ ابن طبـاطبا، ابن الـطقطقي: الفخـري في الآداب السلطانية. دار بيـروت، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

٤٦ ــ الطبري، أبو جعفر محمـد بن جريـر: تاريـخ الأمم والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ط ٢، ١٩٧١م.

٤٧ ــ ابن عبـد الحكم: فتوح مصـر وأخبارهـا، طبع ليـدن، بريـل، مكتبة المثنى بغداد، ١٩٢٠م.

٤٨ ــ عبد الحليم محمود: القرآن والنبـي.

٤٩ ــ عبد القادر أحمد يوسف: الإمبراطورية البيزنطية. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٦٦م.

٥٠ ــ عبد المنعم ماجـد: تاريـخ الدولـة العربيـة. مكتبة الانجلو مصـرية، ط ٢، ١٩٦٠م.

٥١ ــ عرفان عبد الحميد: المستشرقون والإسلام، المكتب الإسلامي، ط ٢، بيروت ١٩٨٠م.

٥٢ ــ عمر فروخ: تجديد التاريخ، دار الباحث، بيروت ط ١، ١٤٠١هـ /١٩٨٠م.

٥٣ ــ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. دار المخطوطات، القاهرة، تاريخ رقم ١٥٨٤.

٥٤ ــ فان فلوتن: السيادة العربية. ترجمة حسن إبراهيم وزميله، ط ٢، ١٩٦٥م.

٥٥ ــ فلهوزن، يوليوس: تاريخ الدولة العربية. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٦٨م.

٥٦ ــ فيليب حتي خوري: تاريخ العرب. ترجمة محمد مبروك، القاهرة، ط ٣، ١٩٥٣م.

٥٧ ــ ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ١، ١٣٩٩هـ.

٥٨ ــ ابن كثير: البداية والنهاية. دار الفكر العربي، دار النيل للطباعة، الجيزة، بدون تاريخ.

٥٩ ــ كلود كاهين: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. تعريب بدر الدين القاسم، دمشق، ط ١، ١٩٧٣م.

٦٠ ــ كيتاني: حوليات الإسلام.

Geetani, Annali del'Islam Vol. V.

٦١ ــ لوبون، جوستاف: حضارة العرب. تعريب عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٦٢ ــ المقريزي: إمتاع الأسماع. تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤١م.

٦٣ ــ المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الخطط المقريزية. طبعة جديدة بالأوفست.

٦٤ ـ ابن منظور: لسان العرب. دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٦٥ ـ موريس لومبارد: الجغرافيا التاريخية. ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، بدون تاريخ.

٦٦ ـ مناهج المستشرقين، مجموعة من المؤلفين. المنظمة العربية للثقافة والعلوم، مكتبة التربية العربية لدول الخليج ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٦٧ ـ نتنج، أنتوني: العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام. ترجمة راشد البراوي، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٤م.

٦٨ ـ نجيب الكيلاني: الإسلامية والقوى المضادة.

٦٩ ـ نورمان دانيال: الإسلام والغرب.

٧٠ ـ ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق السقا وزملائه، بدون تاريخ.

٧١ ـ الواقدي: المغازي. تحقيق مارسدن موش. مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦م.

٧٢ ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان. دارصادر، دار بيروت، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٧٣ ـ اليعقوبي، أحمد: تاريخ اليعقوبي. دار صادر وبيروت، بيروت ١٩٦٠م.



فهرس أطراف الآيات الكريمة[1]

(١) كما وردت في البحث وإن لم تكن رأس الآية.

***

فهرس أطراف الأحَاديث الشريفَة[1]



(١) كما ورد في البحث وإن لم يكن رأس حديث.

الفهرس العام[1]

(١) لا يشمل أسماء الكتب والمؤلفين في الهوامش. كما أنه لم يشمل ما يتكرر كثيراً كمحمد ﷺ، والإسلام.

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

. . .

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

***

المحتويات

*
**